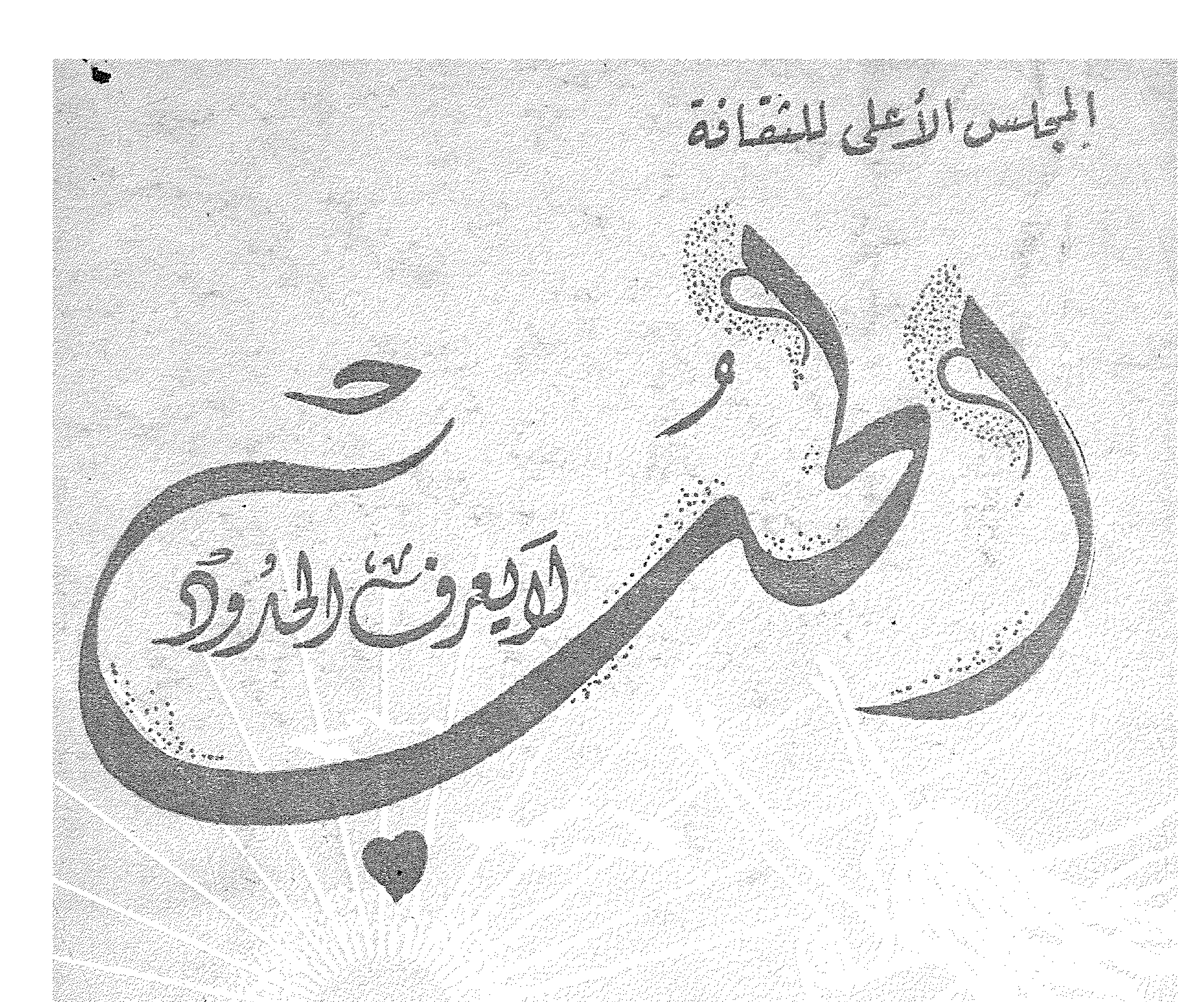


سالم حقي

مجموعة قصص مصرية قصيرة

يحيى حقي

الحب.. لا يعرف الحدود

مجموعة قصص مصرية قصيرة

المجلس الأعلى للثقافة

الاهـــــداء

الى الأجيــال المقبلة ..

لعلها ان تجد فى سطور هذا الكتــاب ، بصيصــا

من النور .. يضىء لها السبيل ..

اى سبيل .. !

سـالم حقى

الحب ... لا يعرف الحدود

وفجأة .. دار الهمس بين الموظفين فى المصلحة كأنه تيار كهربائى : المدير الجديد وصل ! .. المدير الجديد وصل !

ورفعت الآنسة زينات رأسها عن المذكرة التى كانت تكتبها ، ووضعت القلم الجاف على المكتب الخشبى الحائل اللون .. وهتفت :

ـ باه !! أخيرا وصل ! .. ياترى شكله ايه ؟ !

وأجاب نصيف أفندى زميلها فى العمل ، والرجل الذى أمضى فى المصلحة أكثر من عشرين عاما .. ورقى فى التحسين الأخير الى الدرجة الرابعة بالرسوب الوظيفى :

ـ أكم من مديرين يازينات يابنتى ! .. وبكره تزهق من شكله !

وهزت الآنسة زينات رأسها كأنما تصدق على كلامه .. المهم أنه وصل بعد انتظار دام تسعة أيام سمعت خلالها عنه الكثير : أنه صعب .. وكشر ! وقد اختاره وكيل الوزارة بالذات لدفع العمل بالمصلحة وتطويره .. ولذلك فان جميع الموظفين يتوجسون خيفة من العمل معه ، خاصة بعد أن وصلت الى أسماعهم هذه المعلومات عن شدته فى العمل ، وتمسكه تمسكا دقيقا باللوائح والتعليمات المصلحية .

وجاءت الساعة الثانية بعد الظهر . وبدأ الموظفون يغادرون مكاتبهم . وأسرعت الآنسة زينات فى الانصراف .

هجس فى خاطرها فجأة أن ترى هذا المدير الجديد .. فلربما شعرت من مظهره أنه ليس على الصورة التى تواترت عنه . فان المظهر كثيرا ما يعطى صورة أقرب الى الحقيقة عن شخصية المرء . ورأت أن تنتظر المدير الجديد بالقرب من باب المصلحة قبل وصوله اليه .

وفعلا .. ما كادت تصل الى الباب الخارجى ، حتى وجدت سيارة المدير فى انتظاره . ولاحظت الحركة التى تصحب عادة وصــول المدير الى الدور الأرضى ، فوقفت باقترب من الباب ، حتى وصــل المدير الى الردهة المستطيلة يسير فى تؤدة وشىء من الوقار المصطنع ، وهو يجيل عينيه فى مبنى المصلحة كأنما يتفقــده ! وفى الموظفين الذين اصطفوا على جانبى الردهة .. كأنما يتفحصهم !

وقبل أن يصل الى الباب .. التقت عيناه بعينى الآنسة زينات فى نظرة خاطفة .. الا أن زينات أدركت بفطرة الأنثى أنها نظرة ألمت بها جميعاً .. من حذائها الصغير الأنيق ... الى شعرها الأسود المسترسل الناعم !

وأدركت أن النظرة انطوت على شىء من الدهشة .. والكثير من الاعجاب !

كان المدير الجــديد ، كمــا رأته زينات .. أنيق الهنــدام فى غير تكلف . معتدل القامة . على شىء من الوسامة . رمادى الشعر . يناهز الخمسين من عمره .. وان كان مظهره لا يشى بهذه السن . تطوف بسمة خفيفة بشفتيه وهو يحيى صغار الموظفين الذين وقفوا يودعونه وهو يغادر مبنى المصلحة .

وما كادت السيارة تمضى بالسيد المدير ، حتى أحست زينات بفيض من الراحة .. بل من السرور يغمر صدرها !

لا يعقل أن يكون هذا المدير الذى رأته .. بالقسوة التى يصوره بها زملاؤها الموظفون ! قد يكون جادا حقا .. مؤمنا بمبدأ ما .. ولكن الصورة التى رأته بها خلال هــذه الثوانى القليلة تنفى عنه أية شبهة فى قسوة أو تزمت !

انه ليس « دقة قديمة » على أية حال !

وسارت زينات الى مسكنها وقد لاحت على شفتيها بسـمة هادئة مطمئنة عندما استعادت الى مخيلتها ذلك الاعجاب الذى التمع فى نظرة المدير اذ رآها لأول مرة !

وأحست يدها اليسرى ـ دون قصد منها ـ تداعب الدبلة الذهبية الصغيرة التى تحيط باصبع يدها اليمنى !

* * *

كانت زينـات فى السابعة والعشرين من عمرها . خمرية اللون ، مصرية الوجه ، حلوة التقاطيع . تضع على شفتيها بسمة دائمة وضيئة ، وترسل شعرها الأسـود الطويل خلف ظهرها فى شبه حرية . وكان أهم ما يلفت النظر اليها .. قوام متسق رشيق .. لا زيادة فيه ولا نقصان ، يرتفع فوق ساقين لم تر العين أجمل منهما .. ولذلك كانت تتعمـد أن تكشف عن أكبر مساحة منهما .. اعترافا منها بنعمة الخالق ، وتصدقا على الأعين الجائعة لعابرى السبيل !

وكانت الى ذلك .. جادة فى عملها ، تؤديه على أكمل وجه . موضع احترام رؤسائهـا وزملائهـا . لا تشى تصرفاتهـا بأى ضعف أو شبهة فى أخلاقها وسلوكها .

وكانت مخطوبة الى شاب فى الثلاثين من عمره .. يشغل وظيفـة فى احدى الشركات ، كثيرا ما كان يرافقها الى باب المصلحة فى الصباح . وكانت هذه الخطبة موضع تندر زملائها فى العمل .. اذ أنها استطالت الى أكثر من ثلاثة أعوام .. فى انتظار شقة صغيرة تصلح عشا للزواج . الا أن أزمة المساكن ، وخلو الرجل الباهظ ، وازدياده المستمر .. كانت تقف عقبة كأداء فى سبيل تحقيق حلم الزواج السعيد .

وكان الخطيب الشاب .. يقف مكتوف اليدين ، مغلوبا على أمره ازاء هذه المشكلة .

وكانت هي أيضا لا تعرف كيف تتصرف ! كان وضعهما مجمدا .. لا يعرفان كيف السبيل الى تحريكه .. أو الفكاك منه !

* * *

وفى اليوم التالى .. فوجىء الموظفون بالمكتب الذى تعمل به الآنسة زينات بزيارة السيد المدير . وهب الموظفون وقوفا ، فى حين مضى المدير يتنقل بينهم ، مصافحا كلا منهم فى شىء من المودة . ورئيس المكتب يعلن اسم الموظف والعمل المختص به .

وأحست زينات ــ على غير ما تتوقع ! ــ بيد المدير وهى تصافحها باردة لا أثر فيها لحياة !

وخيل اليها أن المدير يتعمد ألا يوجه اليها نظره . يتعمد أن يتجاهلها أمام زملائها ، رغم توجيهه بعض كلمات المجاملة لزميلتها عنايات .

وخشيت أن يكون احساس المدير بها وهما لا حقيقة له . الا أنها أبت أن تصدق ذلك .

وأحست .. أن فى الأمر .. شيئا !

ثم أمسكت بالقلم ، وطردت الأفكار عن رأسها ، وغرقت فى العمل .

وبعد يومين .. هرول الساعى الى المكتب ، طالبا الآنسة زينات لمقابلة السيد المدير .

فوجىء الباشكاتب بذلك . ولم تصدق هى أذنيها ، وهى تسمع اسمها عى لسان الساعى . وسألها الباشكاتب عن السبب فى هذا

الاستدعاء السريع ، فأجابته وهى تهرول خلف الساعى بأنها لا تعرف سببا لذلك •

ودلفت الى غرفة مكتب السيد المدير ، وعلى وجهها بسمتها الدائمة •• ووجدت نفسها تسير الى المكتب الذى يجلس اليه المدير •• حتى كادت تلتصق به !

وأحست عندما رأت المدير جالسا خلف مكتبه يوجه اليها نظره ، باطمئنان غريب ، وألفة مفاجئة •

ولاح لها وجه المدير مجهدا •• وتخفى عيناه حزنا عميقا • وقالت :

ـ أفندم ؟

وسمعت صوت المدير يقول فى هدوء :

ـ حضرتك الآنسة زينات حسنين ؟ حاصلة على ليسانس فى الآداب •• قسم التاريخ ؟

ـ دفعة ١٩٧٢ يا أفندم •

ـ مرتاحة للعمل هنا ؟

وأحست أنها لا تكلم مدير المصلحة ، فقالت بألفة :

ـ الحمد لله يا أفندم • وان شاء الله نستفيد من وجود سيادتك معنا •

وقال المدير كأنما لم يسمع جملتها الأخيرة :

بلغنى أنك من خيرة الموظفات بالمصلحة • وأرجو أن تستمرى فى اخلاصك فى العمل • وأى صعوبة •• أو مشكلة •• بابى مفتوح لك •

ـ شكرا يا أفندم •

وخفض المدير عينيه الى بعض الأوراق على المكتب ، كأنما لم يعد يحس وجودها الى جواره .. فاكتنفتها دهشة مباغتة .. ومن ثم انسحبت الى الخارج .

أى رجل هـذا ؟ !

يتجاهلها فى مكتبها ! .. ثم يطلبها بعد ذلك الى مكتبه دون سبب واضح ، ثم يحدثها حديثا مشجعا يفيض بالود والاهتمام . ثم فجأة .. يتجاهل وجودها وهى الى جواره .. كأنما يطردها من مكتبه :

وتساءلت .. لمـاذا طلبها ؟ !

انها تعمل فى هـذه المصلحة منذ خمس سنوات . ولا تذكر أنهـا أستدعيت الى مكتب المدير مرة واحدة .. الا ومعها الباشكاتب .

ثم .. ما هى حكاية ليسانس الآداب هذه ؟ !

ان كثيرا من زملائها وزميلاتها يحملون هذه الشهادة !

حقا .. انها مخلصة فى عملها ، جادة فيه .. هكذا يشهد الجميع .. ولكن كيف علم هو بذلك خلال يومين فقط ، وهى لا تزيد عن كونهـا موظفة صغيرة .. فى الدرجة السابعة ! ؟

والأهم من ذلك .. ماذا يريد هذا الرجل ؟ !

وماذا ستقول لزملائها وزميلاتها عندما يسألونهـا عن سبب هـذا الاستدعاء السريع ؟

وأحست نفسها فى دوامة وهى تعود الى مكتبهـا .. حتى قابلهـا الباشكاتب فاغرا فاه :

ــ خيرا يا آنسة زينات ؟ !

فانتزعت نفسها من الدوامة لدى سماعها هذا السؤال ، وأجابت :

ـ خير ياحضرة الباشكاتب . يبدو أن أحد أقربائى يعرف سيادة المدير .. أوصاه بى .

فارتفع صوت زميلتها عنايات قائلا :

ـ يا بخت من كان النقيب خاله ! !

* * *

أشعل الأستاذ سامى لفافته ، بعد أن تناول غداءه ، واستغرق فى تأملاته .

لا شك أن الآنسة زينات استهدفت أن تسترعى انتباهه ، عندما وقف دون مبرر بالقرب من الباب الخارجى ، فى أثناء مغادرته المصلحة فى اليوم الأول .

وهذه النظرة النافذة التى اصطدمت بها عيناه ، عندما نظر اليها .. كانت كأنما تقول له : أنا هنا !

ثم هذه الدهشة .. بل هذا الاعجاب الذى لم تستطع أن تخفيه عندما وقع بصرها عليه .. ماذا تقول عنه ؟ !

وهل تخفى عليه وهو الرجل المجرب ، مثل هذه الأمور ؟ !

ماذا تريد الآنسة زينات .. بهذا الهجوم السريع المفاجىء ؟ ! وليس من شك أن منظرها يسترعى الانتباه . وأن جمالها يدير أصلب الرءوس ، وأكثرها عنادا ووقارا .

ثم .. من تراها تكون ؟ !

انه يذكر بعض المحـاولات العـابرة التى دارت بينه وبين بعض الموظفات فى المصالح الأخرى من قبل !

ولكنها كانت محاولات تتسم بالهدوء . أو استغلال الظرف المناسب ، منه أو من الموظفة على السواء !

ولكنه دون ما مراء .. لم يصادف مثـل زينات سحرا وجاذبية وجمالا .. واهتماما بمظهرها وأناقتها .

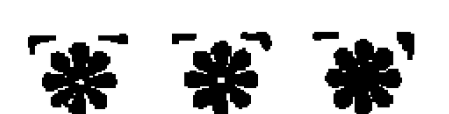
وافتر ثغره أخيرا عن بسمة خفيفة . يكفيه على كل حال أن تكون زينات من بين موظفات المصـلحة . وليترك للأيام أن تحـدد خطوط القصة .. بعد ذلك .

* * *

وعندما استقر فى صباح اليوم التـالى ، ود لو يستدعى زينات . لكنه أمسك وهو يكاد يضغط على جرس المكتب !

ماذا يقول الموظفون ، وكلهم عيون ثاقبة ، وألسـنة لا تكف عن الهمس والكلام ! !

وصرف تفكيره عن هذا الأمر . ثم استغرقه العمل ، حتى انتزع نفسه بصعوبة من مقعـده بعد انتهاء الميعاد الرسمى بنصف ساعة . وفوجىء بزينات تقف بالردهة ، تتظاهر بالحديث مع أحد زملائها . وأدرك أنهـا تعمدت ـــ مرة ثانية ـــ أن تجذب انتباهه . الا أنه رأى أن يفوت عليها غرضها : وأن يتظاهر بعدم رؤيتها . ومضى الى سيارته .. وبسمة سعيدة تكاد تطفو على شفتيه !



كان الأستاذ سامى يعيش شبه منفرد ، فى فيللا أنيقة . فقد قضت زوجته اثر مرض عضال . فى حين تعيش ابنته الوحيدة لدى شقيقة له فى الخارج ، تستكمل دراستها الجامعية . وتشرف على شئون الفيللا امرأة عجوز تنصرف الى مسكنها ليلا .

ولا يدرى الأستاذ سامى ، كيف خيل اليه والسيارة تمضى به فى الطريق الى منزله ، أنه سوف يجد هناك .. زينات ! تستقبله بأحضانها الشابة الدافئة ، وعلى شفتيها بسمتها الدائمة التى لا تغيب عنهما !

ما أجدر جمالها وشبابها بمثل هذه الحياة الناعمة المترفة ! وما أجدره هو بمثل هذه الأنوثة الملتهبة ، والسحر الأخاذ ، يجددان شبابه ، ويعوضان عن أيام الحرمان التى عاشها مع زوجته المريضة !

وصدمه سؤال :

أتراها تصلح لمثل هذه الحياة الزوجية ؟ !

وهل ترى جال بخاطرها أن ينتهى الأمر بهما .. الى الزواج ؟ ؟

أم أن الأمر كله محض خيال وأوهام . أو مجرد عبث من موظفة صغيرة لغرض فى نفس يعقوب ؟ !

وقرر أن يعرف كل شىء عنها .

رأى أن يسيطر هو على الموقف ، حتى لا يتورط فى أمور لا يجوز لمثله أن يتورط فيها .

وتم له ما أراد . عرف أنها من أسرة متوسطة الحال . تسكن فى أحد الأحياء الشعبية القريبة من مبنى المصلحة ، الا أنها لا تبخل على مظهرها بشىء .

وعرف أن أحدا فى المصلحة أو خارجها ــ رغم كثرة المحاولات ! ــ لم يستطع أن ينال منها شيئا !

وعرف أخيرا حكاية خطبتها الطويلة الأمد .

فرأى أن يكف عن التفكير فيها . أو على الأقل .. أن يترك لهــا هى زمام الموقف ، تحركه كيفما تشاء . وله هــو بعد ذلك أن يتصرف على ضوء تفكيره الهادىء المتزن .

* * *

وفى اليوم التالى .. فوجىء بهــا تدخل الى مكتبه ، وعلى شفتيها بسمتها الدائمة ، ويسبقها عطرها الذى يدغدغ الحواس .

نظر اليها مدهوشا ، وتمتم فى مزاح من العجب والجد والبهجة :

ــ خيرا يا آنسة ... ؟ !

فقالت بجرأة وثبات :

ــ زينات يا أفندم ! سيادتك طلبت هذه الأوراق .

ــ فعــلا .

وأخذ من يدها الأوراق . وجعل يتفحصها برهة ، ثم أعادها اليهــا وهــو يقول :

ــ عملك دقيق فعلا يا آنسة زينات .. و .. وخطك جميل .

ــ شكرا يا أفندم .

وفوجىء بها مرة ثانية تصوب اليه عينيها فى تحد . وسمعها تقول بصوت محدد الكلمات :

ـ قبل أن تجىء .. سمعنا عن سيادتك كلاما كثيرا !

لم يصدق أذنيه .. وارتسمت علامات الدهشة على وجهه .. الا أنها استطردت رغم ذلك :

ـ يقولون عن سيادتك .. انك صعب .. مخيف . لـكن .. أنا ضد هذا الرأى .

بدا على وجهه شىء من الارتياح .. فسألها مشجعاً :

ـ ما رأيك اذن ؟

رأيى ؟ .. أنك شىء آخر ..

قاطعها مشجعاً :

ـ شىء آخر ؟ !

ـ نعم .. شىء آخر .. لم نره فى المصلحة من قبل !

ـ شكرا يا آنسة زينات .

ومد لها يده . فوضعت قلم الحبر الذى كانت تمسك به ، على حافة المكتب فى سرعة . وأراحت يدها الصغيرة فى كفـه ، وعيناها مصوبتان الى عينيه كسهمين من نار .

وأحس دفء يدها ينتقل الى أعماقه ، فضغط على يدها فى رفق ، فاستكانت له . ثم جعل يتحسسها بأصابعه فى حنان ، فملأت وجهها بسمة رائعة .

وسحب يده وهو يلتقط أنفاسه • فلقد تطورت الأمور بينهما فجأة ، دون تدبير مسبق •• ووجد نفسه يقول :

ــ اجلسى يا زينات •

وضغط على الجرس ، فأقبل الساعى مهرولا ، فابتدره قائلا :

ــ فنجان قهوة للآنسة زينات •

وأدرك كل منهما ، لدى آخر قطرة من فنجان القهوة ، أن دنيا جديدة تفتحت له • دنيا مفعمة بالمشاعر الدافئة ، والسعادة ، والود الصادق •

وقال لها وهى تهم بالقيام من مقعدها :

أرجو أن أراك يا زينات •

قالت :

ــ أرسل فى استدعائى كلما أوحشتك •

قال :

ــ وماذا يقول زملاؤك ؟

قالت فى جرأة هزت أعماقه :

ــ لا تخش شيئا ••

ثم أردفت بصوت هامس كأنما تخاطب نفسها :

ــ نحن لا نرتكب اثما ••

* * *

وسيطرت زينات على مشاعر الأستاذ سامى • وغدت تعيش معه فى كل لحظات يومه •

كان يأوى الى النوم •• وهو يفكر فيها • فاذا استيقظ ، لاح له وجهها نضرا متهللا جميلا •• كأنما يقرئه تحية الصباح !

وتعجب من أمره !

أتراه يعود لأيام المراهقة مرة ثانية •• وهو فى هذه السن •• وهذا المركز ؟ !

وأية مراهقة هذه ؟ !

مراهقة الرجل الناضج الواثق من نفسه ، الذى يعرف كيف يضع قدمه فى موضعها !

ويل للفريسة •• من المراهق المتمرس الخبير !

وشعر بسعادة طاغية تكتنفه •••

مرحبا بالحب ••

مرحبا بالعطر والدفء ••

مرحبا بالحياة ••• تجيش فى أعماقه من جديد !

* * *

وبدا له أن يستدعى زينات فور وصوله الى مكتبه • الا أنه عاد وتمسك بأهداب الصبر • هكذا تقول حنكة المراهقة الثانية !

ومن يدرى ؟ •• فربما جاءت هى يحدوها شوقها ورغبتها • والمرأة اذا أرادت ، لا تعدم وسيلة للوصول الى ما تريد !

فلما بلغت الساعة الواحدة بعـد الظهر ، شعر بيـده تضغط على الجـرس .

وجاءت زينات ، ووقفت قرب الباب وعلى شفتيها ابتسامتها الدائمة ، وعيناها تزغردان !

ومدت رأسها الى الأمام فى شىء من المرح ، وسألت فى همس :

ــ سيادتك طلبتنى ؟ !

ــ تعالى يازينات . لمـاذا لم تحضرى من تلقاء نفسك ؟

ــ أخشى أن يكون لديك بعض الزوار .

وأشار اليها بيده ، فأقبلت عليه تتأود فى مشيتها . ومد لهـا يده ، فمدت يدها . واذا به يختطف اليد الصغيرة الناعمة ، الغارقة فى العطر ، ويهوى عليها تقبيلا !

وسمع ضحكتها الخافتة . ثم شـعر بها تسحب يدها فى بطء وهى تهمس :

ــ حاسب ! .. حد يشوفنا !

فلما رفع رأسه واعتدل فى جلسته قالت ضاحكة :

ــ أفندم ! .. أمر سيادتك .

ــ اجلسى .

ــ كفى اليوم .. سأعود لعملى .. باى باى !

ولوحت له بذراعهـا مودعة .. وهى تعود الى الباب بظهرها .. بينما هو يلتهمها بعينيه .

* * *

وعاد الأستاذ سامى يسائل نفسه .. ثم ماذا ؟ ! والى أين ؟ !

ان أحدا لا يستطيع أن يتهم زينات فى أخلاقها .. والا لكان هو أول من يكتشف ذلك .

ثم انهـا .. ليست كالأخريات التى صادفهن من قبل ، وصادفهم سواه ، داخل مكاتب الشركات والمصالح الحكومية أينما كانت ، يطلبن المتعة السانحة ، والتسلية الدافئة مع زملائهم أو رؤسائهم على وجه الدقة .

ثم انهـا لا تخـدعه لا تعبث به . لا تحـاول الافادة من هـذه العلاقة . فهى لم تطلب اليه شيئا سواء كان فى مجال العمل أو خارجه . ولا يبدو أنها ستفعل .

اذن .. الى أين ؟ !

ولاحت له الدبلة الذهبية فى أصـبع يدها اليمنى ، كعلامة انذار حمراء . فبدت له هذه العلاقة أمرا لا يقره الضمير . حتى اذا أراد أن يتزوجها .. فان هناك حائلا !

وتعجب ! لمـاذا يقسو عليه القدر الى هذا الحد ؟ ! واذا كان قـد ألقى بها فى طريقه .. فلماذا لم يجردها من أشواكها ؟

ألا يكفى فارق السن بينهما ؟ !

وقرر بينه وبين نفسه أن يسدل ستارا على هذه العلاقة .

انه رجل يعرف كيف يسيطر على عواطفه ويتحكم فى نزواته .

أما هى .. فلا بد أن ترضخ للأمر الواقع ، فليس أمامها .. طريق سواه .

وأقسم ألا يستدعى زينات الى مكتبه . أن يتجاهلها .. أن يسقطها من كشف الموظفين بالمصلحة !

وكان اذا أحس ضعفا فى نفسه ازاء هذا القرار ، هرول الى خارج المصلحة ، حتى لا يستسلم له .

ومضى أسبوع . وبدأت زينات تتلاشى وتختفى شيئا فشيئا . وهنأ نفسه على قوة ارادته .

وجلس على مقعده ، وبسط أمامه جريدة الصباح ، وجعل يتصفحها فى هدوء ، انتظارا لفنجان القهوة الذى اعتاد أن يحتسيه قبل أن يبدأ عمله .

ثم أحس حركة خفيفة داخل المكتب . ورفع رأسه .. فاذا هى .. أمامه ! زينات واقفة بالقرب من « البرافان » الأزرق الداكن ، وقد اختفت بسمتها .. واكتسى وجهها ضعفا وشحوبا ، كأنها لم تنم منذ فترة طويلة .

وسمع صوتها ينساب فى أسى وعتاب مكتومين :

ــ لماذا لم تستدعنى طوال هذه المدة ؟ !

لم يعرف كيف يجيب .. فهتف فى حرارة :

ــ زينات ؟ ! ... أهلا ..

خيل اليه أن يقوم ، ويهتصرها بين ذراعيه . وسمعها تقول بصوتها الخفيض الكظيم :

ــ أرجوك .. لماذا لم تطلبنى ؟ !

ــ لماذا ؟ ! .. لماذا ؟ ! .. اننى .. أخاف عليك ..

قاطعته فى شبه ثورة :

ــ مم ؟ !

ـ أنت مخطوبة . يجب أن تتأنى .. أن نعيد التفكير ..

تقدمت خطوتين نحوه .. وقاطعته :

ـ فى .. ماذا ؟ !

ـ فى .. فى هذه العلاقة .. ان اعتبرتها كذلك .

قالت فى تحد :

ـ وهل تستطيع ؟ ؟ !

ـ هل أستطيع ؟ ! .. ربما .. ثم .. هل أنت جادة ؟

قالت فى خضوع لم يألفه منها :

ـ ألا يبدو ذلك .. على ؟ !

وأدرك أنه أسقط فى يده .. فقال :

ـ زينات ! .. يجب أن تلاحظى فارق السن .

ـ أرجوك ! .. لا أريد تبريرا لشىء .. هذا شأنك .

ـ انك لا تعرفين مدى احساسى بك . انك كل شىء فى حياتى .

التمعت عيناها فجأة .. وخيل اليه أن وجهها تورد بالحياة . وعادت البسمة الى شفتيها . واذا بها تتقدم نحوه ، وتلتصق بمكتبه . واذا يدها فى يده ، وشفتاه تنهال عليها تقبيلا .

قالت وهى تضحك فى خفوت :

ـ كفى .. ان شاربك يدغدغ احساسى .

وسحبت يدها فى نعومة .. واستدارت الى الخارج .

* * *

لم يدر الأستاذ سامى ماذا يفعل بعد ذلك . ان هنالك قوتين عارمتين تتنازعانه : الحب ، الظمأ ، طاغوت الأنثى فى زينات من ناحية . والضمير ، والمركز الأدبى ، والموقف المعقد من ناحية أخرى .

وسأل نفسه : وزينات ؟ .. ماذا هى صانعة ؟ ! ان موقفها أكثر دقة وتعقيدا من موقفه . هذه الأنثى فى ربيع العمر . المتفتحة للحياة . الفواحة بالعطر والسحر .. كيف تنظر الى هـذه العلاقة ؟ وماذا تبغى من ورائها ؟

لابد أنها فكرت فى ذلك ، فهى لا شك جادة . وهى لا شك تثق فيه وتطمئن اليه . هكذا يقول له احساسه وتحـدثه عيناها . اذن .. ماذا هى صانعة ، والأشواك تحيط بها من كل جانب ، وتكاد تمزقها ؟

كيف يا ترى تفكر هذه الأنثى وهى فى مقتبل الشباب ؟ وهل يختلف تفكيرها وتقديرها للموقف عن تفكيره هو .. الرجل الناضج المجرب .. الذى يصنع حسابا لكل شىء .

ورأى أن يحسم الموقف ليريحها من عذابه ، قبل أن يريح نفسه . فما أشد عطفه عليها وشغفه بها .

واصطنع مبررا واستدعاها . وجاءت وهى تكاد تعدو . وابتدرها قبل أن تلتقط أنفاسها :

ـ زينات ! .. لقد استدعيتك لكى أقول لك .. يجب أن تعلمى أننا لا نلهو .. ماذا أنت صانعة ؟

وأشار الى دبلتها !

فبدت عليها الحيرة بعض الشيء ، وجعلت تتحسس الدبلة بأصابعها في حركة لا ارادية . وسمعته يقول :

ـ هل تحبين خطيبك ؟

سكتت هنيهة .. ثم قالت :

ـ خطبة عادية . تقـدم لخطبتي . وافقت أمي . ولم يكن هناك أحد .. فوافقت .

ثم صوبت اليه عينيها النافذتين وأشارت الى الدبلة في اصبع يده اليسرى ... وقالت :

ـ وأنت ؟ .. زوجتك ؟

ـ زوجتي ؟ ! .. لا زوجة لي !

فوجئت بالاجابة . تلونت عينـاها بمزيج من الدهشـة والمفاجأة والفرح .. وكادت تصرخ :

ـ لا زوجة لك ؟ !

ـ نعم .. لقد ماتت منذ عامين .. وأحتفظ بالدبلة للذكرى .

ـ والأولاد ؟

ـ بنت واحدة تستكمل دراستها في الخارج .. ولا شأن لك بها . حدثيني عن موقفك أنت :

حركت شفتيها في حيرة ثم قالت :

ـ لا أدري !

سكت برهة .. ثم قال :

ـ هل تتزوجين رجلا مثلى .. اذا تقدم اليك ؟

لم تجب . فاستطرد :

اذا وافقت على ذلك .. تعالى .. وسآخذك الى أقرب مأذون . هذا قرارى ... والكلمة الأخيرة لك .

التمعت عيناها فى سعادة . وأرادت أن تتكلم ، فلم تخرج الكلمات من بين شفتيها ، فى حين همس الأستاذ سامى :

ـ أنا لا أستطيع أن أتجمل ما أنا فيه ! يجب أن نضع حدا . هل نستطيع أن نجلس الى بعضنا خارج العمل ؟

فوجئت بهذا السؤال .. فهمست كالملدوغة :

ـ لماذا ؟ !

ـ لكى نناقش حياتنا فى هدوء .

قالت مقاطعة :

ـ أريد .. ولكنى لا أوافق !

ـ اذن ..

وخفض رأسه ، وابتعد بعينيه عنها ولم يكمل كلامه .

وأحست هى ما يضطرم فى أعماق الرجل .. فعادت الى الوراء .. واختفت ..

* * *

ما أشد شقوتك أيها العاشق فى الخمسين !

ما الذى ألقى بك فى هذا الأتون المتأجج ؟ وكيف رضيت أن تمضى مع هذا التيار الجارف الى حيث لا تدرى ؟ !

وراجع الأستاذ سامى نفسه . هل كان جادا حقا حين عرض عليها الزواج ؟

ألم يكن ذلك من الصياد المحنك طعما شهيا للفريسة الحائرة يقضى به على ما تبقى لها من مقاومة ! ؟

وصرخ فى أعماق نفسه : لا ! ان زينات هى سعادة ما تبقى له من أيام .. فكيف يرفض هذه السعادة التى كافأة بها القدرة .. على حين غـرة ؟ !

وأصبح زواجه من زينات حقيقة لا تقبل عنده المناقشة ، ولا تحتمل الشـك !

وقرر أن يحترم هـذه الحقيقة ، وألا يجعـل من علاقته بزينات مضغة فى أفواه الموظفين بالمصلحة . فصمم على ألا يلتقى بها الا اذا عادت بكلمتهـا .

والا .. فليمض كل منهما فى طريقه ...

* * *

وأغرق الأستاذ سامى نفسه فى دوامة العمل ، حتى لا يتغلب عليه ضعفه .

كان يرى كل صغيرة وكبيرة فى المصلحة بنفسه ، وكان يناقش كل أمر مناقشة جدية واعية ، مما أدهش مرءوسيه وأثار اعجابهم فى نفس الوقت ، فاندفعوا معه يعاونونه بكل ما فى طاقتهم من جهد وقدرة .

وعاشت زينات فى دوامة .. أخرى !

كانت اذا جلست على مقعدها .. تصو بعينيها الى باب المكتب بين الآونة والأخرى ، انتظارا لقدوم « عم حسنين » الساعى ، حاملا معه استدعاء السيد المدير . وكانت اذا ما أقبل الساعى ، تلقى بالقلم من يدها وتكاد تهم بالقيام من مقعدها ، الا أن رجاءها سرعان ما يخيب ، عندما يتجه الساعى الى الباشكاتب الذى يهرول معه الى مكتب السيد المدير !

ومضى أسبوع .. دون أن يلتقى الاثنان .

وحاولت أن تنتظره بالقرب من باب المصلحة ، عنـدما يئست من استدعائه لها . فلما لمحهـا من بعيد ، أدار رأسه ، ومضى الى سيارته كأنه لم يحس وجودها !

وأدركت زينات وهى تأخذ طريقها الى منزلها أن المدير مصمم على موقفه . متمسك به . يريد أن يضع نهاية لهذه العلاقة التى تحرقهما معا فى أتونها المستعر .

وبدأت تعيد تقدير موقفها على ضوء هـذه الحقيقة . ومضت فى طريقها الى مسكنها فى خطا بطيئة متثاقلة .. ورأسها يدور .

وما كادت أمها تفتح لها باب الشقة المتواضعة ، حتى هرولت زينات الى فراشها وارتمت عليه تجهش بالبكاء .

وفزعت الأم لبكاء ابنتها .. وصرخت :

ـ مالك يابنتى ؟ ! .. خير يازينات ؟ !

فلم تجب زينات ، واستمرت فى نشيجها المكتوم • فأمسكتها أمها من وجهها كما لو كانت طفلة صغيرة وقالت :

ـ زينات ! أنا أمك يابنتى • اننى أشـعر بأنك تخفين عنى شيئا يشغلك منذ فترة • قلب الأم لا يكذب • صارحينى يا بنتى •• تكلمى •• قولى لأمك •

فنظرت زينات الى عينى أمها الملتاعة ، فأبصرت فيهما الأسى والحيرة والألم • وتساءلت : لـماذا لا تخبر أمهـا ؟ •• لـماذا لا تشركها فيما تعانيه من حيرة وتمزق وضياع ؟ !

وهتفت :

ـ مـامـا !

ـ روح ماما يابنتى !

ـ أريد أن أترك محسن !

فزعت الأم لسماع ما قالته ابنتها ، فدقت على صدرها بيديها •• وصرخت :

ـ ياندامة يابنتى ! تتركين خطيبك ؟ ! •• كفى الله الشر ! ••

ماذا يقول النـاس ! ؟ •• لـماذا يازينـات ؟ ! •• محسن طيب وابن حلال •• وانت عنده بالدنيا !

واستجمعت زينات ارادتها وأعصابها ومنطقها وبدأت تحدث أمها :

انها مسألة حياة •

ان السعادة لا تطرق الباب مرتين !

وها هى ذى السعادة تطرق بابها ملحة . فلماذا لا تفتح لها الباب ؟!

لماذا لا تستقبلها بأحضانها الدافئة .. الظامئة الى الحياة ؟

ان سامى يحبها بجماع قلبه . يعيش من أجلها . وهناك فيللا أنيقة تنتظرها . وحياة رغدة هانئة تناديها . فلماذا لا تغتنم الفرصة وتهرول اليها بجماع شبابها ورغبتها وطموحها ؟ !

الى متى تنتظر مع محسن المغلوب على أمره ، العثور على شقة ضيقة من ثلاث حجرات ، وهو واقف عاجز لا يتقدم خطوة واحدة !

الى متى تندس كل صباح وسط هذه الكتلة اللزجة من اللحم البشرى فى الأتوبيسات تمتهن كرامتها وأنوثتها وانسانيتها ؟ !

ثم ماذا هى صانعة غدا اذا وفق محسن — وهذا محض خيال ! — فى العثور على شقة تضمهما ؟

كيف يعيشان بالمرتبين الضئيلين ؟

وهل ستنضم الى قائمة طوابير الجمعية كزميلتها عنايات فى سبيل الحصول على كيلو من اللحم المجمد ، أو الأرز أو زوج من الفراخ ؟ !

طالما اشمأزت من صوت عنايات ، عندما كانت تصدع رأسها بما تعانيه فى طوابير الجمعية ، وما يثور من خلاف بينها وبين زوجها بسبب مطالب الحياة المستمرة وضروراتها التى لا تنتهى .

حقا .. ان سامى فى الخمسين من عمره . ولكن مظهره ، والصحة التى يبدو فى روائها لا يوحيان بهذه السن .

ان الحيوية تتفجر فى نظراته •• فى حديثه •• فى عشقه وهواه !
فى حين يستبد اليأس والخمــول والضياع بشباب محسن المطحون ••
فيحيله الى انسان باهت •• لا يوحي بالثقة !

أما ••• عن الغد ؟ !

فمن منا يعلم ماذا يخبئه له غده ؟ !

أنا لا أشترى الغد المجهول •• بشبابى الضائع •• وحاضرى المهدر!

ووضعت الأم يدها على فمها متعجبة •• وهى تسمع كلام ابنتها ، وقالت :

ـ تختارين المدير ؟ ! •• تفضلينه على محسن يازينات ؟ !

ـ وأنت ؟ ما رأيك يا ماما ؟ !

فبدا الشك على ملامح الأم المبهورة ورددت فى بطء :

ـ والله يابنتى مش عارفه أقولّ ايه ! !

ثم أردفت كأنها تذكرت شيئا فاتها :

ـ ولكن •• هل أنت واثقة من سعادة البيه المدير ؟ !

ـ ثقتى من حنانك يا ماما •

وجردت زينات أصبعها من الدبلة ، ووضعتها على « الكومودينو » الصغير بجوار فراشها • فنظرت اليها الأم فى استسلام •• وقالت :

ـ ربنا يجيب العواقب سليمة !

* * *

ما كاد الأستاذ سامى يجلس الى مكتبه ، حتى فوجىء بزينات تقف الى جوار « البرافان » الأزرق الداكن . فهتف فى شبه دهشة :

ـ صباع الخير يا آنسة زينات .

ـ صباح الخير يا افندم .

وتقدمت الى مكتبه . بدا له وجههـا الصغير ينوء بارهاق كبير ، وأنها تكاد تسقط من الاعياء . فسألها فى عطف شديد :

ـ مالك يازينات ؟ ! .. هل أنت مريضة ؟

تضاحكت فى خجل وهى تقترب من المكتب :

ـ أبـدا

ثم التصقت بالمكتب كعادتهـا ، ووضـعت يدها على حافتها .. وأردفت :

ـ هكذا ؟ ! .. كيف استطعت أن تتجاهلنى طوال هذه المدة ؟ !

ـ أتجاهلك ؟ ! انك تعيشين فى كيانى !

ضحكت عيناها وتلألأتا .. كانت كلماته العاشقة تبعث الحياة فى أعماقهـا !

ـ ووقع بصره على يدها . وأدرك ما حدث ، فهتف مبهوتا ؟

ـ أين الدبلة .. يا زينات ؟ !

فهزت يديها فى عصبية وقالت :

ـ الدبلة ؟ ! .. أعدتها .. الى صاحبها .

كاد يصرخ :

ـ ولمـاذا لم تخبرينى ؟ !

ـ اذن .. لمـاذا جئت ! ؟ رأيت أن تكتشف الأمر بنفسك حتى لا أحرجك !

ـ كم أنت رقيقة يازينات !

فسكتت .. ولم تجب .

فارتسمت بسمة خفيفة على شفتيه ، وشمله هدوء مفاجىء . ثم نظر اليها فى حب عظيم .. وقال فى أسلوب الأمر :

ـ يا آنسـة زينات .. تقدمى الى رئيسـك المباشر بطلب اجازة اعتيادية لمدة شهر اعتبارا من باكر .

كادت تقفز من هول المفاجأة ، فى حين استمر المدير فى أوامره ! :

ـ وفى المساء .. أرجو أن تنتظرينى والسيدة والدتك .. فسآتى لزيارة الأسرة .

أرادت أن تتكلم فلم تطاوعها الكلمات . فهزت يديها ورأسها كعادتها كلما يغلق عليها القول . وسمعت صوت المدير يقول :

ـ اتفضلى يا آنسة زينات . مع السلامة !

فهزت رأسها ايجـابا . وتراجعت بظهرها الى البـاب ، وعيناها لا تفارقان وجه الأستاذ سامى فى نظرة عابدة !

وما كادت تدير ظهرها متجهة الى البـاب .. حتى جاءها صـوت المدير .. يقول فى شبه استدراك :

ـ يا آنسة زينات ! .. أرجوك ..

فالتفتت اليه برأسها مدهوشة . وسمعته يقول :

— أرجوك .. هل أنت واثقة من أنك أحسنت الاختيار ؟

استدارت اليه وهى فى مكانها . وركزت عينيها فى عينيه برهة تستشف غور نفسه .. ثم هزت رأسها ايجابا .. عدة مرات .

وغادرت المكتب ..

* * *

فاكهة .. آخر الشهر !

وقائع هذه القصة .. حدثت منذ أكثر من عشرين عاما .. كما لابد أن يفهم القارىء!!

لم يكن يضايقنى فى عملى الجديد ، الا أنه يبعد عن منزلى مسافة طويلة ، فكنت أضطر الى استعمال سيارات الأوتوبيس ، التى كانت تكلفنى ستة قروش كاملة فى اليوم الواحد .

وفى ظهر أحد الأيام ... غادرت عملى مجهدا ، واتجهت الى محطة الأوتوبيس فى خطى بطيئة متلكئة ، وجعلت أنتظر مقدمه تحت أشعة الشمس الملتهبة فى أيام أغسطس الخانقة .

وجاء الأوتوبيس أخيرا بعد انتظار ممل طويل ، فاندفعت اليه كالقذيفة ، كى أستطيع الحصول على مقعد ألقى عليه بجسمى المكدود .

ولم يكن الأوتوبيس مزدحما — على غير عادته ! — فعثرت على مقعد ارتميت عليه ، وقد بدأ التعب يتسرب الى جميع أعضاء جسدى .

ومضى الأوتوبيس فى طريقه المعتادة ، يمشى قليلا ثم يقف هنيهة لينزل منه بعض الناس ، ويصعد اليه جميع الناس !

وفى احدى المحطات ، صعد الى الأوتوبيس فيمن صعد ، سيدة فى نهاية العقد الخامس من عمرها ، وخط الشيب شعر رأسها ولم تحاول اخفاءه ! واندست وسط الركاب الواقفين فى ممر الأوتوبيس ، حتى قام لها أحد الجالسين عن مقعده رأفة بها ، فجلست عليه فى تؤدة ووقار ، بعد أن شكرت الرجل المهذب بايماءة مهذبة أيضا من رأسها .

ولست أدرى لم استرعت تلك السيدة انتباهى رغم ذلك التعب الذى كان يدفع النوم لحوحا الى عينى ! •

ولست أدرى أيضا لم لم أسترح الى رؤية تلك السيدة ، رغم أنه لم تكن لى بها معرفة من قبل ! ورغم أنها لا تعدو أن تكون عابرة سبيل قد لا تقع عيناى عليها مرة أخرى • الا أننى أستطيع أن أرجع ذلك الى أننى أحسست عندما وقع بصرى عليها لأول وهلة أنها ربما كانت احدى ناظرات المدارس ••• وأنا لا أحب هذا الصنف من النساء ! •

••• وجعل الأوتوبيس يقطع طريق ٢٦ يوليو • وتلاشى احساسى بوجود تلك السيدة ••• وسيطر النعاس على رأسى فكدت أروح فى اغفاءة رغم صياح الكمسارى وسباب السائق وضجة الركاب !

بيد أننى أفقت فجأة على يد تربت على كتفى من وراء فى شىء من الخشونة والأمر! فأدرت رأسى مغيظا ••• فاذا هى يد السيدة وقد ظهرت بين أصابعها ورقة نقدية جديدة من ذات الخمسة قروش • وطلبت الى السيدة فى شبه أمر أيضا ! أن أنادى الكمسارى ، الذى تصادف أنه كان يقف غير بعيد منى ••• كى يقطع لها تذكرة !

وضايقنى ذلك من السـيدة ••• فقررت ألا أعير طلبها اهتماما ، وتظاهرت بأننى لم أفق من اغفاءتى • وألقيت برأسى على صـدرى من جديد !

وتطوع أحد الواقفين بجوارى ، ونادى الكمسارى كى يقطع تذكرة « نلست » فأقبل الكمسارى الأعجف العجوز مدهوشا •• فلعلهـا أن تكون المرة الأولى فى حياته العملية الطويلة ، التى يصادف فيها مثل هذه التجربة ••• ولعلها أن تكون الأخيرة أيضا •••

وسمعت من خلفى صوت السيدة يقول فى لهجة الأمر التى لاتفارقه :

ـ لأ ... تذكرة بثلاثة قروش .. مش بقرشين .. علشان أنا راكبة من رأس التين .

وأحسست عندئذ بأننى لا أستطيع أن أستمر فى اغفاءتى ، وأتجاهل ما يحـدث حولى .. ورفعت رأسى وفتحت عينى ، أجيل النظر ـ دون ما قصد ـ فى الركاب المحيطين بى ، كى أطالع صدى الحادث العجيب فى وجوههم !

ولم يكن الركاب أقل منى عجبا وفضـولا ، فالتقت العيون جميعا تستشف انطباعات الحادث فى صدور الآخرين ...

* * *

خيل الى أن ذلك الكهل الجالس على المقعد الجانبى الطويل ازائى فى ضيق وتبرم ، قد انفرجت أسارير وجهه ، ولاح ظل ابتسـامة على شفتيه .. وغمغم يحدث نفسه :

ـ كويس والله ... الدنيا لسه فيها خير !

أما ذلك الطالب فى العشرين من عمره ، الواقف على يسارى فى ممر السيارة وقد فشلت سترته الضيقة الباهتة اللون فى أن تحتوى صدره ! فقد بدا واضحا لى أنه لم (يبلع) تصرف تلك السيدة ، فقد مط شفتيه فى ازدراء ورماها بنظرة مشمئزة .. كأنما يقول :

ـ معتوهة . أو متظاهرة .. طظ !

وكان بين الجالسين (أفندى) ضخم الجثة ، قصير القامة ، يحمل على ركبته (شمامة) . ضخمة مثله ، أجاد انتقاءها كما أجاد مساومة البائع عند شرائها . خال لى أنه قال مخاطبا شمامته :

ـ معلوم ! الفلوس تعمل أكتر من كده . مليانة .. ومريشة .. مش طالعة روحها وشايلة شمامة قد الجبل زيى .. علشـان أوفر قرش صاغ .

والتمعت نظرة ازدراء فى عين امرأة أنيقة فى ربيع العمر .. كأنهـا تصرخ :

ـ يا سم .. آل يعنى خلاص الأمانة حتاكل منها حتة !! .

* * *

وأخيرا وصلت السـيارة الى محطتى ... فتنفست الصـعداء .. وغادرت الأوتوبيس .

ولم أنس وأنا أضع قدمى على أرض الطريق ، أن أضع يدى اليمنى فى جيب سروالى ، وأسـقط فيـه ثلاث قطع معـدنية من ذات القرش الواحد ... هى ثمن تذكرة الأوتوبيس .. التى لم أقطعها ! !

وفى طريقى الى منزلى... وقفت أمام عربة بائع (الجوافه) واشتريت أقة كاملة .. بثلاثة قروش .

* * *

وعندما فتحت زوجتى الباب... ورأتنى أحمل (قرطاس) الجوافة.. لم تستطع أن تخفى دهشتها ... فلقد كانت المرة الأولى التى اشترى فيها شيئا من الفاكهة .. فى آخر الشهر !!

* * *

الخائنة الصغيره

تعالى ••• يا بنيتى الصغيرة الجميلة ! تعالى أيتها الشقية أشد أذنك هذه الرقيقة ••• وأحدثك حديثا عجيبا ، فاننى لأخشى عليك مغبة الغرور، وعاقبة الصلف والكبرياء !

تعالى الى !! فلشد ما تألمت عندما رأيتك تصفعين بيدك هذه الناعمة صديقنا الشاب الطيب القلب ابراهيم أنور ••• عندما قال لك المسكين مازحا :

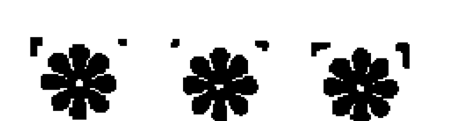
ــ هل تتزوجيننى يا علية ؟

ولم تكتف بهذه الصفعة القاسية الرعناء يا بنيتى ••• بل هتفت بصوت ملؤه العزة والصلف ؛ على مسمع منا نحن موظفى مركز طلخا لا ينقص منهم أحد :

ــ أنا أتزوجك أنت ؟ اننى سأتزوج من رجل عظيم تخفق له القلوب وتعنو الجباه ••• لا من رجل بسيط مثلك !

وضحكنا يا بنيتى ••• وضحك المسكين معنا ، واختطف اليد الصافعة وطبع عليها قبلة حانية ، فى حين كان أبوك يا بنيتى يبكى فى أعماقه ويئن أنينا عظيما !

واندفع الجمع يعلق على الصفعة ••• كل من وجهة نظره ••• ضاحكين مازحين • وسكت أنا يا بنيتى •• وسرحت ببصرى بعيدا بعيدا ! فلقد أيقظت الصفعة المتحيرة فى صدرى ذكرى قديمة ••• مشت عليها أقدام الزمان ••• حتى كاد أن يحتويها النسيان •



* كان ذلك منذ عشرين عاما أو يزيد . وكنت اذ ذاك أشغل وظيفة صغيرة بمدينة طنطا .. عاصمة الغربية العتيدة . كنت واحدا من ذلك القطيع الذى لا تبصر العين نهايته ، يملأ الدواوين ، والمصالح والوزارات يأكل الورق كما تأكله فئران الليل فى صبر وجلد عجيبين ، وقد باع زهرة عمره لقاء أجر شهرى متواضع .. لا يكاد يكفى ضرورات الحياة !

وكنا نحن موظفى البلدة الغرباء ، نقضى ليلنا الأجوف فى أحد الأندية! نلعب النرد والورق ، ونسمع الراديو وندخن النرجيلة ، ونجرع أقداح الجعة والويسكى ولم يكن ثمنها يبهظ الموظف الصغير !

وكان أبوك يا بنيتى رجلا هادئا ، لا يلعب النرد ، ولا يشرب الويسكى ، كان يقصد الى النادى فينتحى ركنا قصيرا ، يقرأ فيه مجلة أو كتابا ، فاذا فرغ منهما ، جلس الى جانب الراديو بعض الوقت يسمع الموسيقى الشرقية الساجية ، وغناء أم كلثوم وعبد الوهاب وكانا يتسلقان المجد فى سرعة رائعة — وترتيل الشيخ محمد رفعت طيب الله ثراه .

وكان لصديقنا « فلان » وهو أحد أعيان البلدة طفلة صغيرة فى الثامنة من عمرها . جميلة مثلك يا بنيتى . عيناها السوداوان الواسعتان هما عيناك ! وشعرك الكستنائى المسترسل نفس شعرك . وصلفها وكبرياؤها هما الجرثومتان اللتان تسريان فى دمائك مسرى الحياة ! !

وكنت أحبها كما لو كانت ابنتى . فكنت أغمرها بالحلوى ، وأملأ لها بيدى كوب الكازوزة المثلجة . وأقص عليها أطرف القصص ، وأسبح معها فى أودية الخيال العجيب ، حيث الشاطر حسن وبنت السلطان ، والرخ ... والدجاجة التى تبيض ذهبا !

وكانت سهير تأنس الى ... وتقبل على أحاديثى اقبالا شديدا . وكثيرا ما أمسكت رباط عنقى لترغمنى على متابعة حديثى عندما أتظاهر بالغضب ... أو التعب ! وكثيرا ما رفعت الى وجهها الطاهر أعب منه قبلة

أو اثنتين أو ما يحلو لى من القبــل ••• لتهب لى القوة على اســتئناف الحديث والكلام عن مغامرات ديك الجن ••• وبساط الريح •••

وكانت العلاقة بيننا يعرفها الجميع • وكثيرا ما تندر بها رواد النادى• حتى كانت ليلة اقترح فيها أحد الأصدقاء أن يجعل لهذه العلاقة الصــفة الشرعية ! فتعهدت بأن أحضر فى الغد دبلة جميلة أضعها فى أصبع العروس الصغيرة !

وكان أن عدت فى الليلة التالية ، ومعى دبلة من المعدن الرخيص ! فلما أقبلت سهير••• أجلستها على ركبتى! وجمعت الحاضرين بالنادى••• وأخرجت الدبلة ••• وقلت لوالد سهير وأنا ألوح له بها :

ـــ طالب القرب منك !

فأجاب الرجل الطيب ضاحكا وهو يشير الى سهير :

ـــ العروس غير قاصر ••• والرأى رأيها !

فالتفت الى سهير ••• وأخذت أصبعها الصغيرة ، ووضعت الدبلة فيها ••• وقلت وأنا أقبلها :

ـــ نحن من الآن ••• زوجان يا سهير !

فتصاعد الدم الى وجه الصبية ، وهزت رأسها فى عصبية عجيبة ، وقالت وهى تخلع الدبلة من أصبعها :

ـــ ماذا تقول ؟ أنت زوجى ؟

ثم ألقت بالدبلة فى احتقار أمام الجمع الذى جاء يحتفل بزواجنا • وقالت فى صلف وغرور :

ــ أنا أتزوجك ؟ ! لا ••• بل سأتزوج من رجل عظيم ، تخفق له القلوب •• وتعنو الجباه •

فشعرت بالدماء تغلى فى عروقى • واذا جبينى يتفصد عرقا ولسانى يصيبه الشلل فلا أستطيع أن أقول شيئا •

وضج الجميع بالضحك • وجعل كل واحد منهم يعلق على «الكارثة» أو « النكبة » بما اتفق له ، فى حين طغى الخجل على وجه والد سهير ، فرفعها من فوق ركبتى وشد أذنها وهو يقول منقذا الموقف :

ــ هكذا أيتها الخائنة الصغيرة : صدق شوقى حين قال :

والغوانى قلوبهن هواء ! !

وانقضت الليلة كما انقضت ••• وعدت الى بيتى وفى صدرى جرح عميق •

وقل ترددى على النادى • وكنت كلما رأيتها أدرت رأسى وتجاهلت وجودها • وأحست هى ذلك منى ، فانكمشت ••• وقتات فى نفسها الرغبة فى سماع أحاديثى وخرافاتى • وكثيرا ما التقت أعيننا فى نظرة خاطفة حزينة ••• كأنها تبكى على ما حدث •

ثم اختفى وجه سهير••• وافتقد النادى ضحكاتها••• ومرحها••• وطفولتها •

* * *

ويمشى الزمن فى طريقه الطويل اللانهائى ••• وأنقل من طنطا •

ثم يعود الزمن يضرب من جديد لأجد نفسى فى طنطا مرة ثانية • وكان ذلك منذ اثنى عشر عاما يا بنيتى • وكنت اذ ذاك رجلا مكتمل الرجولة فى منتصف الحلقة الخامسة من عمرى •

وفى طنطا ••• جاء والدها ••• والد سـهير لزيارتى فى مكتبى •
ورحب بى الرجل الذى وخط الشيب رأسه ترحيبا أثلج صدرى وملأنى غبطـة •

ووجدتنى أقول وأنا أمر بكفى على جبهتى كأنما أمسح عنها ما علق بها من غبار السنين :

ـ وكيف حال سهير الآن ••• أقصد سهير هانم ؟

وضحك الرجل وهو يدق بيده على مكتبى •• ثم كف عن الضحك فجأة ••• وقال :

ـ ألا تزال تذكرها ؟ :

قلت : كأنما لم أتركها الا أمس فقط :

قال : ان لك قلبا من المـاس يا رفعت ••• انها بخير •

فقلت محاولا أن أستدرجه الى الحديث عنها :

ـ لابد وأن يكون أولادها فى مثل (شقاوتها) :

فسكت الرجل برهة ، وحدجنى بنظرة متفحصة كأنما رابه ما أقول:

ـ أولادها ؟ ؟ ••• انها ••• لم تتزوج بعد •

ولست أدرى لمـاذا خنق قلبى فى صدرى لسماع هذا النبأ •

لم تتزوج بعد ؟ !

لمـا تزل عذراء ••• تلك الجميلة ؟

وقلت وأنا أعرف أننى أكذب :

ـ انها ما زالت صغيرة على كل حال •

فسكت الرجل ولم يجب ... كأنما لم يسمع ما قلت .

وأبى الصديق القديم أن يغادر مكتبى الا بعد أن وعدته بأن أتناول طعام العشاء على مائدته .

فلما جاء المســاء ... وجدتنى أقف طويلا على غير عادتى ، أمام المرآة ، أطيل النظر فى هنــدامى وأناقتى ، وأحاول قدر الطاقة أن أخفى الشعيرات البيضاء التى تسللت فى غفلة منى الى رأسى .

وضغطت على جرس الباب ، ففتح الخادم ... واستقبلنى مضيفى فى ترحاب وقادنى الى حجرة الاستقبال . وبعد أن شربنا أقداح القهوة المتقنة ... قال الرجل :

ــ يبدو أن القهوة قد أعجبتك ؟

قلت : فى الحقيقة ... انها فى غاية الجودة .

ــ انها من صنع صاحبتك القديمة سهير ... وسأدعوها لتسلم على صاحبها القديم .

وجاءت سهير فى ثوب أخضر بديع . والتقت العيون التى لم تلتق منذ أكثر من عشر سنوات فى نظرة خاطفة . وتصاعد الدم الى وجهينا ... وتمتم كل منا بكلمة من كلمات التحية ثم جلست سهير معنا .

وتناولنا العشاء . وأذاب الطعام الجيد والألفة ما أقامته الســنين الطويلة من حواجز بيننــا ، فجعلت أتكلم مثلمــا كنت أتكلم منذ زمن بعيد ... وسهير ذات الثمانى السنوات ... تصغى فى لذة وشغف .

وقبل أن أغادر المنزل صافحتها مودعا . وأحسست يدها الرخصة تستكين فى يدى فى حنان واستسلام .

وأخذت طريقى الى مسكنى وسهير فى ثوبها الأخضر الأنيق ، وفتنتها الطاغية ، تملأ رأسى وتلهب الدماء فى قلبى .

ثم تذكرت الحادث القديم ... فانكمشت فى نفسى . وأحسست مثل حد النصل يغور فى صدرى ...

أتراها تذكره هى أيضـا .. أم ماذا ؟

وسمعت هاتفا غامضا يهتف فى أعماقى ... كأنما مارد عملاق نبع فى أغوار نفسى من قمقم مجهول . وظل الصوت يردد : لمـاذا لا تتقـدم للعانس الجميلة ذات الثلاثين ربيعا ؟ ... لمـاذا ؟ ... لمـاذا ؟؟

وجعل الصوت يرتفع ويرتفع ... حتى لم أعد أسمع شيئا سواه ...

ولم أعرف النوم ... تلك الليلة .

وفى مساء اليوم التالى ... كنت آخذ طريقى الى منزل صـديقى كالمـأخوذ ، وفى أذنى ذلك النداء الغامض المبهم : تقدم .

وفتح الخادم الباب . وشد الرجل على يدى مذهولا للزيارة المفاجئة . وتحرك لسـانى فى فمى دون ما شعور :

ــ أريدها يا صديقى القديم .. أريد سهير .

ووقف الرجل مبهوتا ، وقد عقدت المفاجأة لسانه ، حتى اذا استعاد جأشه ، هتف والفرح يغمر وجهه :

هكذا غلبتك الشقية ؟! ... اننـا نرحب ...

فقاطعته فى عصبية ثائرة :

ــ أرجوك ! ... حادثها فى الأمر أولا ... وسـأنتظر ...

كان الحادث المقيت لايزال يحز فى قلبى !

وخرج الرجل ... وجلست وحيدا أنتظر عودته ... وفى صدرى مرجل يغــلى .

كيف حدث هذا ... فى مثل لمــح البصر ؟!

وعاد الرجل بعد برهة ... ومعه سهير فى ثياب المنزل العادية ... وقال:

ـــ معذرة اذا جاءت العروس ... فى غير زينة ! .

فاختطفت يد سهير كالمجنون ، وطبعت عليها قبلة هادئة ... طويلة .

فلما رفعت رأسى ... لمحت دمعة تترقرق فى عينى العروس السعيدة .

* * *

وفى اليوم التالى ... وضع أبوك يابنيتى دبلة ذهبية صغيرة فى أصبع أمك ... والزغاريد الطروب تتصاعد من الدار راقصة هانئة تعلن النبأ السـعيد .

وضــع الدبلة يابنيتى ... لتهرول العروس الى حجرتهــا تغسرها بدموعها وقبلاتها وغرامها ... كما قالت لى أمــك ... بعد ذلك

خاطر لعين ... كاد يعكر على صفو تلك الليلة ... وهناءتها ..

هل ترى طاف بخاطر العروس ... ذلك الحادث ... ليلة أن ألقت بالدبلة الزائفة فى احتقار ... أمام الجمع من الأصدقاء ... الذى جــاء يحتفى بزواجنا ... منــذ ســنين ؟ !!

* * *

السعادة .. شيء آخر !

اسمه فرناس دهب عزيز . هكذا سمعته منه عندما التقيت به أول مرة . أسود اللون مثل زنوج وسط أفريقيا . الا أن قسمات وجهه صغيرة ومتناسقة ، فهو من عمق الصعيد فى مصر . جاءت به الأسرة الثرية التى كان يعمل أجيرا فى حراسة أرضها ، عندما أقامت عمارة شاهقة بالاسكندرية .. ليعمل بوابا لها .

رأيته أول مرة ، فى نهاية الخمسينات ، عندما كنت أبحث عن شقة لسكنى . وتوطدت علاقتى به وبأسرته عندما أقمت بشقة بالدور الأرضى من العمارة .

كان فرناس أو زوجته « محضية » يسرعان لتلبية طلبات زوجتى التى لا تنتهى ، مثل شراء الخضراوات أو استدعاء السباك أو الكهربائى .

وكنت لا أبخل عليه بشىء . كنت أجزل له العطاء . وكانت زوجتى تهب له ما يصلح من ملابسها أو ملابس ابنتى الصغيرتين لزوجته وابنتيه وداد وبهية . وكانتا فى سن مقاربة لسن ابنتى .

وكثيرا ما كانت محضية تساعد زوجتى فى شئون المنزل عندما تذهب الشغالة الصغيرة لزيارة أهلها فى احدى قرى مدينة طنطا .

وكان فرناس لا يغيب عن باب العمارة ، الا اذا ذهب الى الزاوية القريبة لتأدية فريضة الصلاة . أو اذا قصد الى المقهى البلدى بشارع السوق لتدخين المعسل . فقد كان المعسل كما قال لى ذات يوم وهو يضحك فى سعادة وحياء ، هوايته الوحيدة فى الحياة .

وكان فرناس يعتمد فى واقع الأمر على ما نقدمه له من هبات ومساعدات . فقد كانت أكثر شقق العمارة مغلقة طوال العام ، حيث لا ينزل بها مستأجروها الا فى موسم الاصطياف .

فاذا أهل شهر مايو من كل سنة ، وضع فرناس ثلاجة صغيرة أمام باب العمارة ؛ وتنــاوب هو وزوجته بيع زجاجات الميــاه الغــازية للسكان بالعمــارة •

وكان يطيب لى أن أمزح معــه أثناء دخولى الى العمــارة وتناول احدى هذه الزجاجات ، وأقول له وأنا أتصنع نبرة الجد فى كلامى :

ــ ألا أجد عندك زجاجة بيرة مثلجة ياعم فرناس ؟

فكان يبتسم فى هدوء ويقول لى :

ــ الحرام خلينا بعيد عنه أحسن يا بيه ! !

* * *

هكذا عرفت فرناس وزوجته محضية ، على مدى أكثر من خمسة أعوام ، كبرت خلالها ابنتاه والتحقتا بالمدرسة الابتدائية •

وقدر لى أن ألتحق بعمــل فى الخارج • فأغلقت شقتى وسافرت وأسرتى الى حيث أعمــل • وأوصيت فرناس ومحضية بحراسة الشــقة ، فتعهدا بذلك مخلصين من خلال الدموع التى ترقرقت فى عينى كل منهما• فقــد كان سفر أسرتى الى الخارج يحرمهما ما اعتادا عليه من مساعدات وهبات ، أصبحت تمثل جزءا هاما من دخلهما •

* * *

وطالت غيبتنا عن أرض الوطن •

وكنا نكلف أحد أقربائنا بأن يسدد ايجار الشقة الى عم فرناس • ولم أكن أنسى أن أوصيه فى كل خطاب أن يجزلّ له العطاء •

وأخيرا •• وبعــد عشر سنوات تمكنت من العــودة وأسرتى الى الاسكندرية فى اجازة من العمل لمدة ثلاثة شهور •

كان الشيب قد وخط شعر رأسى . وكانت زوجتى قد ازدادت سمنة . أما ابنتاى .. فقد غدت كل منهما عروسا تتمتع بقسط وافر من الأناقة والجمال .

كانت الأسرة العائدة .. غير الأسرة التى غادرت الاسكندرية . حتى خشيت ألا يعرفنا عم فرناس ، ومن كنا نتعامل معهم فى حياتنا اليومية من كواء .. وبقال .. وبائع الجيلاتى الذى كانت ابنتاى فى طفولتهما تترددان على محله فى اليوم الواحد .. أكثر من مرة .

غير أننا لم نكن الوحيدين الذين أصابنا التغيير !

الشارع نفسه .. لم يعد الشارع الذى كنا نعرفه . ازدحم بالمبانى غير المتناسقة ، وامتلأ بالحفر والمطبات . والعمارة .. ازدادت ارتفاعا . والناس .. ذهب بعضهم ، وجاء البعض الآخر ، ووضع الزمن بصمانه على الكثيرين .

أما أكثر ما أثار دهشتنا .. فقد كان عم فرناس .. ومحضية !

كان عم فرناس يرتدى جلبابا فخما من الصوف الفاخر ، وينتعل حذاء جلديا ثمينا . وقد نحل عوده بعض الشىء ، ومشى الشيب فى فوديه وشاربه وشعر ذقنه . وكان يجلس على مقعد خشبى بجوار الباب .

وعندما وصلت سيارة الأجرة التى كانت تقلنا الى باب العمارة ، لم يجشم عم فرناس نفسه مشقة الوقوف واستقبال القادمين كما كان يفعل من قبل . ولاحظت أنه لم يقف ويلتفت الينا الا عندما ناديته ، فى شىء من المودة والاشتياق :

— ازيك يا عم فرناس .

التفت الينا الرجل فجأة عندما رن صوتى فى أذنيه . فلما تأكد من وجودى أمامه ، قام فى بطء من مقعده وأقبل علينا مرحبا وهو يقول فى سعادة صادقة .

ـــ آهلا •• حمد الله على السلامة ياسعادة البيه •

وعندما افتقدنا محضية •• ألفيناها راقدة على فراش داخل الحجرة تعـانى من نوبة ربو حادة • ولاحظنا أن ساعدها الأيمن ينوء بكتلة من « الأساور » الذهبية التى تحيط به ! !

ولمحت نظرة دهشة تلتمع فى عينى زوجتى •

الى هذا الحد •• تتغير الدنيا خلال عشر سنوات ؟ !

* * *

وعندما استقر بنا المقـام ، وبدأت حياتنا تمضى فى طريقها الطبيعى بعد رحلة السفر الشاقة • جعلت الأمور المحيطة بنا تتضح لنا شيئا فشيئا •

وأدركنا فى النهاية •• أنه ينبغى لنا أن نبدأ حياة جديدة ، بأسلوب جديد •• فى شقتنا القديمة !

كان كل شىء حولنا قد تغير : •• حتى لقد كدنا أن ننكر أننا عدنا الى نفس الشارع •• والشقة •• والجو •• والانسان الذى نعرفه !

« جلدة الحنفية » كانت تنتظر أكثر من ثلاثة أيام حتى يأتى السيد السباك لاستبدالها بأخرى لقاء أجر باهظ ، لم أصدق نفسى وأنا أؤديه له مكرهـا ! :

ثقل سمع عم فرناس •• وأيضا زوجته وولديه الصغيرين ، عندما كنا نناديهم لشراء بعض الحاجيات من الشارع !

صاحب الجاراج الصغير أسفل العمارة • • الذى كان يهب لاستقبالى عندما يرانى ، ويسعد بتقديم أية معونة أو خدمة لى فى الزمان الأول •• والذى بدأ حياته بائع صحف متجولا كما قيل لى •• أصبح يمتلك ثلاث سيارات خاصة • ويضع على عينيه نظارة شمس أنيقة تحجب حول عينه

اليسرى ، ويمسك فى يده حقيبة « سمسونيت » . وعلمت أنه أصبح أحد كبار التجارة فى العملة الأجنبية ، بعد أن تاب عن التهريب منذ سنتين!!

أما عم فرناس .. فقد علمت أنه ابتنى منزلا من ثلاثة أدوار فى حى باكوس القريب منا . وأن محضية لا تضع على جسدها الا الملابس المستوردة ، وقد أمنت حياتها بمصوغات ذهبية بآلاف الجنيهات .

وعلمت أن فرناس ومحضية ، امتهنا تأجير الشقق والحجرات المفروشة وخاصة ازوار الاسكندرية من أخواننا العرب ، الذين كانوا يجزلون لهما العطاء . وأن سمعتهما لم تعد فوق مستوى الشبهات ! !

كما علمت أن أحد النزلاء تزوج من وداد كبرى بنات فرناس ، واصطحبها معه الى وطنه .فلما عادا فى العام التالى ، نزلا فى فندق سان استفانو . وكانا يحضران لاصطحاب محضية وأولادها فى سيارة «بيجو» من آخر طراز ، لتمضى معهما السهرة فى « تراس » الفندق العتيد : الا أن شائعات كثيرة تواترت بعد ذلك علىألسنة القادمين من بلدالزوج ،أن وداد انفصلت عن زوجها . وأنها شوهدت بعد ذلك فى احدى علب الليل ببيروت !

أما بهية .. أخت وداد الصغرى ، فقد اجتازت مراحل التعليم بنجاح حتى الثانوية العامة . الا أنها اختفت فجأة . ومن قائل انها هربت مع أحد النزلاء لأن أمها رفضت أن تزوجها منه ، حيث كانت ترغب فى أن تستكمل بهية تعليمها ، لتصبح « دكتورة » ترتدى البالطو الأبيض الناصع ، وتضع السماعة الطبية حول عنقها ، وتفتح لها أمها عيادة فى محطة الرمل .

هكذا مضت الحياة بفرناس وأسرته ..

وفى ذات مساء .. كنت عائدا الى مسكنى .. وتقابلت مع فرناس .

كان الرجل يسير فى ضعف واعياء باديين . فأصطحبته معى الى العمارة .

وفى أثناء ذلك دار الحديث بيننا فى ألفة حميمة . سألته فى صراحة :

ـ هكذا ياعم فرناس .. تلعب بك الحياة .. وأنت الرجل الطيب ؟!

وقف الرجل فجأة كأنما لدغه تساؤلى .. وصوب الى عينيه فى ذلة واستسلام . وأجاب بصوت خفيض متقطع :

ـ الحياة صعبة يابيه ! والتيار كان قويا .. فلم استطع مقاومته .

وأردف بعد أن التقط أنفاسه ، ونحن نتابع المسير :

ـ كل شيء حولى كان يدعونى أن أمضى مع التيار .. ومحضية .. الله يسامحها .. هى التى بدأت .. ولم أشعر بعد ذلك بما يحدث !

وجالت فى عينيه دمعة .. فربت على كتفه مواسيا . فلما مسحها بكم جلبابه .. خال لى أن فى كل من عينيه .. بئر حزن عميقة .. لاقرار لها !

وأدركت أن السعادة .. شيء آخر ! !

* * *

صــورة الزفاف !

جميع الأزواج على ظهر الأرض ... مغفلون ! ماعدا واحدا فقط هو ... أنــا !

ذلك لأنهم يعتقــدون فى قرارة أنفسهم أن نســاءهم ... وأعنى زوجاتهم ... يغرقن فى حبهم حتى أنوفهن الدقيقة ، ويذبن فيهم وجــدا وهياما وصبابة ! !

أما أنا ... فرجل متواضع والحمد لله ، لا أشارك سائر الأزواج فى اعتقادهم الأسف الشديد . وأؤمن بأن العلاقة بينى وبين زوجتى لاتعدو أن تكون شركة صغيرة قوية ، أكد فيها وأسعى للحصول على المــال الذى نبنى به بيتنا . وتقوم هى فيها على شئون هذا البيت ، وتهيئة أســباب الراحة والسعادة لنا فيه ، بالمــال الذى اتصبب أنا عرقا فى سبيل الحصول عليــــه ! !

أما أن أكون روميو وهى جولييت ... لا لشىء الالأن كلامنا تزوج من الآخر ... فهذا كلام لا أسمح لنفسى أن تفكر فيه !

ولا يستطيع أحد ـــ فى الغالب ـــ أن يقول انه تزوج من الفتاة التى كان يحبها.فأنا مثلا عندما أردت الزواج،لم أتزوج من سنية ابنة ماهر بك الغندقلى ... تلك الفتاة المرحة اللعوب التى كنت أحبهــا ، وأسهر من أجلها الليالى الطوال .. عندما تقدمت الى أهل زوجتى .. أطلب يدها ! !

وكثيرون يفعلون مثلما فعلت ... لأننــا نطلب فى زوجاتنا صفات لا تفكر فيها عندما نقدم قلوبنا الشابة الظامئة ، قربانا على مذبح الحب ! وكثيرا ما لا تتوافر هــذه الصــفات فى الفتيات اللاتى يبادلننا الحب فى فترة ما قبل الزواج .

فأنا — مثلا — أريد فى زوجتى أن تكون هادئة مطيعة ، تجيد فنون المنزل وتتقن شئون المطبخ . بينما كانت سنية مرحة صاخبة ، تكثر من اللهو ، ولا تتقن شيئا غير الرقص ولا تعرف كيف تصنع طبقا من البيض المقلى ...

ولذلك ... فمن الظلم أن نفترض فى الفتاة التى يقع عليها اختيارنا — أو اختيار أهلنا — كزوجة ، أن تقع فى حبنا لأول وهلة ، الا أن يكون فى كل رجل ، مغناطيس عجيب ، يجذب اليه كل النساء على السواء . والقول بهذا ضرب من البلاهة ... ان لم يكن ضربا من الخداع .

* * *

وعندما كان يضمنى وأصدقائى نادى البلدة الصغيرة التى أعمل موظفا فى احدى مصالحها ، كثيرا ما كنت أخوض فى هذا الرأى ، فكنت أقابل بامتعاض كبير من أصدقائى المتزوجين ... وخاصة من أولئك الذين لم يقطعوا فى الزواج شوطا طويلا ، ويجعلوا لعاطفة الحب أهمية كبيرة فى حياتهم الزوجية .

وكثيرا ... ما اتهمنى أصدقائى المتزوجون بأننى فاشل فى حياتى الزوجية .. وأن عقدة نفسية عويصة تختفى وراء هذا الرأى الشاذ ...

ولست أدرى لماذا كنت أذود عن رأيى هذا ما وسعنى الذود .. رغم ما يسببه لى من ضيق ومشاكل ، الا أن فى مقدورى أن أعلل ذلك بأننى أؤمن بأن الحب ليس عنصرا هاما من عناصر الزواج . وأن هناك كثيرا من الزيجات السعيدة — زيجتى مثلا !! — لا تقوم على شيء أكثر من التفاهم الحسن والعفة والاخلاص المتبادل .

* * *

وعندما جاء الى البلدة الدكتور أنور ... وهو عريس جديد ما زال يلعق عسل الزواج وشهده ورضابه ... أثار بعض أصدقائنا

الخبثاء من « العزاب » هذه المشكلة ، فاندفع الدكتور أنور — وما زال طعم العسل على طرف لسانه — يدافع عن الحب فى الزواج ، ويقطع بأن البيت الذى لا يجمع الحب العارم بين ربه وربته .. بيت واهى الأساس ، لن يلبث أن ينقض على صاحبيه ، ويخنقهما تحت أنقاضه الثقيلة .

وأحسست بلساني يتحرك فى فمى ، ووجدتنى أحتد فى النقاش . ويرتفع صوتى ، وتدق قبضتى رخام المائدة ... حتى قام الدكتور أنور من مكانه مذهولا ... وغادر مجلسنا وهو غاضب .

وقاطعنى الدكتور أنور بعد ذلك ، مقاطعة شديدة . فكان لا يحيينى اذا رآنى . ويرد تحيتى فى اقتضاب وغير مبالاة اذا ابتدرته بها . وكان يتحاشى أن ينضم الى المجلس الذى أكون مشتركا فيه !

وكان لهذا التصرف ، وهذه القطيعة أثر شديد فى نفسى ، فقد شعرت أننى أرتكب جرما فى حق جميع الأزواج عندما أدلى برأيى ، ولذلك فقد قررت بينى وبين نفسى ألا أعود اليه مرة ثانية ، وأن أتمسك بأذيال الصمت ، اذا ما أثير الكلام فى هذا الموضوع .

ولاحظ أصدقاؤنا مقاطعة الدكتور أنور لى ، ونفوره منى ، فساءهم ذلك . ورأوا أن يصلحوا ما أفسده النقاش بيننا ، واقترحوا على أن أذهب لزيارته فى منزله ، واعتذر له عن رأيى الشاذ..فوافقت على ذلك.

وذهبنا فى اليوم التالى الى منزل الدكتور أنور الذى فوجىء بزيارتى له ... ولم يستطع أن يخفى امتعاضه خلال عبارات الترحيب المعتادة !

بيد أننى لم أكد أضع قدمى على السجادة الأنيقة التى تملأ أرض حجرة الاستقبال الفخمة ، حتى كدت أتسمر فى مكانى ! فقـد واجهتنى فى صـدر حجرة الاستقبال ... صـورة كبيرة فى اطار مذهب ثمين ، للدكتور أنور وعروسه فى ملابس الزفاف .

وكانت العروس ... هى سنية ... ابنة طاهر بك الغندقلى !

* * *

وأقسمت وأنا أغادر منزل الدكتـور أنور ... أن أغلق فمى على لسانى ... الى الأبد ... !!

انشراح ..

كان زواج انشراح من الحاج بسيونى عبد المتعـال المقاول الثرى الذى يكبرهـا بأكثر من ثلاثين عاما مثار دهشة سـكان حى الجمرك ، ومبعث اسـتيائهم وآشمئزازهم معا . فقد كانت انشراح أجمل صـبايا الحى .. ومعقد آمال شبابه ! لم تزل فى الخامسة عشرة من عمرها ... تخطو الى الشباب فى نشوة وعنفوان .

وكثيرا ما أدارت انشراح رءوس شباب الحى عندما كانت تمشى الى الى مدرستها كل صباح يضىء وجهها ببسمة « شقية » تنشر السـعادة حولها ، وتزرع الآمال فى القلوب الشابة الظامئة الى الحب والجمال . ولذلك فقد كان وقع الصدمة علينا شديدا ، عندما بلغنا أن المقاول الثرى .. اختطف انشراح .. لتدفىء خريفه وتشيع البهجة فى حياته .

بيد أن أكثر ما أثار سخطنا وحز فى نفوسنا كان ذلك التساؤل الملح المرير : كيف رضيت انشراح أن تتزوج من المقاول الكهل ؟ وما الذى دفعها الى هذا المصير الذى لم يكن أحد منا يتوقع أن تنتهى اليه ؟ !

وكانت انشراح تقطن فى الشـقة التى تعلو مسكننا وكنت أكبرها بخمسة أعوام . وكثيرا ما كنا نلتقى على سلم المنزل .. فكنت أهمس لها بالتحية فى دفء وحرارة ، لترد عليها فى شبه غمغمة .. وقد تضرج وجهها من الخجل ، وخفضت رأسها فى حياء .

وكان أصدقائى من أبناء الشارع الذى نقيم فيه ، يغبطوننى على هذه الكلمات العابرة التى أتبادلها مع انشراح .. ويحسدوننى على اقامتى معها فى منزل واحد !

وكانوا يعتقدون أن عشا صغيرا يجمع بينى وبين انشراح فى يوم من الأيام .. عنـدما أنتهى من دراسـتى الجامعية .. فان الجار — كما كانوا يمزحون — أولى بالشفعة ! !

* * *

وكانت انشراح تقيم مع أمها وشقيق لها يشغل وظيفة صغيرة .. وكان دخل الأسرة لا يكاد يفى بضرورات الحياه ، ولذلك فان صـوتا لم يرتفع بالمعارضة أو حتى بالاستياء ، عندما تقدم المقاول الثرى يطلب يد انشراح . لقد كان طاقة من السماء .. فتحت للأسرة الفقيرة !

ولم يخيب الحاج بسيونى ظن الأسرة فيه . فقد أغرقها بالهدايا .. وأغدق عليها من خيره الشىء الكثير حتى ألهج ألسنتها بالشكر .

وبدأت السـيارات الفارهة تعرف طريقها الى المنزل المتواضع . لتدلف اليها انشراح والحاجة تفيدة فى عزة واختيال ، تحت أنظار الجيران وسكان الشـارع المبهورين .

وغدا واضحا للجميع أن انشراح لم تعد بنت الحارة الصـغيرة التى تركب الترام ، وتهلل فرحا عندما تضع على جسدها فستانا جديدا مزركش الألوان .. ضئيل الثمن ...

ولم تكد انشراح تبلغ السادسة عشرة من عمرها حتى انتقلت الى منزل الزوجية ... فيللا أنيقة من طابقين ، تحيط بها حديقة وارفة الظلال فى بقعة هادئة من حى الرمل .

وعاشت انشراح فى رغد من العيش ، تهب اخلاصها لزوجها ولا تألو جهدا فى سبيل مرضاته . وكانت تتردد بين الآونة والأخرى ، على منزل والدتهـا ، تزورها وتطمئن عليها ، وتحمل لها بعض المـال تصلح به من شأنها .

وكأنما أدارت الحياة الجديدة رأس العروس الصغيرة ، فكانت اذا بلغت سيارة الحاج بسيونى باب المنزل المتواضع بحى الجمرك .. غادرها السائق فى سرعة وفتح الباب للسيدة فى أدب وانحناء .. لتخرج منها انشراح رافعة الرأس وقد ارتدت أجمل الثياب وأغلاها ورصعت يديها وذراعيها بأثمن المجوهرات . فاذا قام لها عم حسنين البواب العجوز مرحبا .. حيته فى صوت قوى شامخ كأنما تصدر له أمرا ونفحته بعض المال ، لينحنى البواب العجوز فى سرور يقبل يدها . ثم جعلت تصعد الدرج المتآكل فى ثقة وخيلاء . فاذا قابلها أحد من جيران الأمس بادرته بالتحية فى اقتضاب .. كأنما تجود بها عليه !

وكانت أمها تهرع للقائها عندما تسمع « كلاكس » السيارة ، فى ترحيب غامر وسعادة لا مزيد عليها .. كأنما هى تستقبل ملكة .. من ملكات التاريخ !

وأحس سكان المنزل ما أصاب انشراح ووالدتها من كبر ، فأعرضوا بعض الشىء عنهما ، ولم يعودوا يقبلون على زيارة الحاجة تفيدة مثلما كانوا يفعلون من قبل .. حتى غدت الحاجة تفيدة تعيش فى المنزل ... وكأنها فى شبه عزلة !

وانقضت السنوات ، بعضها فى أثر بعض ، وماتت والدتى ، وتزوجت من احدى بنات الجيران وتزاحمت شئون الحياة .. فلم أعد أرى انشراح الا لماما . ولم أعد أسمع عنها شيئا الا اذا اتفق وجاء ذكرها فى حديث عارض على لسان زوجتى .

وخرجت انشراح ... من حياتنا ..

حتى كان ذات مساء واذا عويل الحاجة تفيدة يمزق سكون الليل ، فهرولنا الى مسكن المرأة العجوز ، نستطلع الأمر ، فعلمنا من خلال نشيجها وبكائها أن الحاج بسيونى صعد الى جوار ربه ... وترك انشراح وحيدة فى الحياة .

وهجس فى خاطرنا أن الحاجة تفيدة لن تلبث أن تترك شقتها المتواضعة لتعيش مع ابنتها الأرملة فى الفيللا التى خلفها لها زوجها الثرى .. فتؤنس وحشتها .. اذ أن انشراح لم تعقب من زوجها أولادا !

بيد أنه لم تكد تمضى بضعة شهور على وفاة الحاج بسيونى ، حتى فوجئنا بانشراح تنزل من سيارة « تاكسى » أمام باب المنزل ، وقد اتشحت بالسواد ومعها بضع حقائب ، وقد طغى الحزن والألم على معالم وجهها ، ولست أدرى لم خيل الى عندما شاهدتها أن شعورا ما بالهزيمة والخيبة كان يكتنفها ، ويسيطر عليها ... وهى تخطو الى عتبة المنزل فى ضعف وانكسار !

وعلمنا أن انشراح خرجت صفر اليدين ! فقد أفلس الحاج بسيونى قبل وفاته بعام واحد ، ولم يتمكن الرجل أن يقوم من عثرته ، فلما مات استنفدت ديونه كل تركته . فلم يبق لانشراح الا أن تغادر الفيللا الأنيقة مطأطأة الرأس ، مهيضة الجناح .. لتعود الى المنزل القديم .. تذرف فيه الدموع !

* * *

وتوالت الأيام ...

وبدأت انشراح تضيق بهمومها ، وتسأم وحدتها ، وتمل نظرات الحاجة تفيدة الحزينة ، وكلماتها الباكية تندب حظها العاثر ومستقبلها الغامض .

وكأنما أدركت أنها لن تستطيع أن تمضى بقية حياتها فى مأساة متصلة ، وهى لم تبلغ الثلاثين من عمرها بعد ، فجعلت تمسح دموعها ، وتبلع كبرياءها ، وتخرج من عزلتها ، وتحاول أن تنسى كل شىء .

وأرادت أن تعود الى وسطها القديم ، وأن تعيش حياتها الأولى ،

وأن تهيل التراب على تلك الحقبة من حياتها التى خال لها فيها أنها غدت مخلوقا آخر لا يمت الى أهـل الحى من قريب أو بعيـد .. بيد أنهـا لم تتمكن : كانت مسحة غامضـة من الكبرياء المهيضة تغلف أفعالهـا وتختلط بكلماتها .. فتبعث على النفور !

وأنت انشراح نفسها وحيدة ضائعة . وأحست أن صـفقتها مع الحياة كانت خاسرة ... فبدأت تتمرد وتثور ، وقررت أن تواجه الحياة فى قوة وعنف .

واستردت نضارتها شيئا فشيئا ، وجعلت تكثر من الزينة والخروج من المنزل . وطردت عن جسدها الثياب السوداء ، ورسمت على شفتيها البسمات . وكثيرا ما أدارت الرؤوس عندما كانت تمشى الى محطة الرمل على مهل واسترخاء . مثلما كانت تفعل منذ عهد .. غير بعيد .

بيد أن أحدا لم يتقدم للزواج منها !

* * *

وفى ذات ليلة ..

بينما كنت آخذ طريقى فى أحد الشوارع الخلفية بمحطة الرمل فى سرعة ، وريح الشتاء الباردة تصفر من حولى ، والشوارع خالية أو تكاد.. لمحت فجأة انشراح تقف فى بقعة مظلمة من الشارع .. ثم تدلف فى عجلة الى سـيارة أنيقة فارهة كانت تنهب الأرض ويقودها شـاب فى عنفوان الشـباب .

ولست أدرى هل رأتنى انشراح اذ ذاك أم لا .. ؟

* * *

وعندما عدت الى منزلى ، كان الألم يعتصرنى ، والوجوم يخيم على ، فلما لاحظت زوجتى ذلك ، لم أشأ أن أخبرها بما حدث •

الا أننى أحسست بأنه ينبغى على أن أفعل شيئا •

وفيما أنا أصعد درج المنزل الى شقتى ذات مساء •• قابلتنى انشراح • كانت تغلق باب شقتها ، وتهم بالنزول ، وقد نشرت حولها عطرا ناعما ملأ المكان •

وجدتنى دونما شعور ، أبتدرها بالتحية فى ألفة ، وأقول لها فى شبه رجاء : بأنه لا يحمد الخروج من المنزل فى هذا الوقت ، فالجو شديد البرودة فى الخارج •

وكنت أكذب !

واذا بانشراح تقف فى مكانها فجأة •• وتصوب نظرها فى عينى ، تسبر غور هذه الكلمات وتستشف ما وراءها • ثم هزت رأسها ايجابا فى رضاء واستسلام •• وعادت أدراجها •

ولاحت فى عينيها •• وهى تدخل شقتها •• نظرة شكر وامتنان ••!

* * *

مناخوليا .. !

كثيرا ما كان يطيب لى أن أزور صديقى الدكتور سمير العرنوسى ، أخصائى الأمراض العصبية فى عيادته . فان صـداقتنا ترجع الى ثلاثين عاما .. منذ نضارة الصبا وغضارة الشباب .

وقد وثق منها فى الفترة الأخيرة ، أن ظروف الحياة دفعتنا الى أن نتخذ من الاسكندرية مستقرا لنا بعـد أن اكان الجوار يجمع بين أسرتينا فى حى العباسية الشرقية بالقاهرة .

هذا بالاضافة إلى أن عيادته تشغل غرفتين أنيقتين باحدى العمارات الشاهقة الحديثة بشارع سعد زغلول وهو الشـارع الذى أكاد أمر منه يوميا سواء كنت أقصد الى العمل .. أو الى رياضة المشى التى نصحنى الطبيب بمزاولتها يوميا ؛ للمحافظة على ما تبقى لى من أسباب الصحة .

وكنت اذا صـعدت الى عيادة صـديقى ، ووجدت غرفة الانتظار مكتظة بعملائه من الجنسين أحسست فى داخلى شيئا من الارتياح .. وأخشى أن أقول الغبطة ! . فقد كان الدكتور سمير يتمتع بسمعة طيبة ويحظى باحترام كبير فى الدوائر العلمية.. ويستحق الرواج كما يقولون!!

وكنت حينذاك .. ألقى بنفسى على أقرب مقعد بغرفة الانتظار .. حتى تهدأ أنفاسى من الصعود الشاق على السلم .. فقد كان أسانسير العمارة يكاد يكون معطلا بصـفة مستمرة ، بسبب العلاقة المتوترة بين المـالك والمسـتأجرين . ثم أطلب الى بيومى التومرجى ، وأنا أهم ، بالانصراف أن يحيط صديقى الدكتور علما بحضورى وانصرافى . فقـد كنت أرتاح لمجرد أن يعلم بزيارتى له .. ولو أن الزيارة لم تتم .

وعنـدما كانت ظروف الحياة والعمل تمنعنى من زيارة صـديقى الدكتور ، فترة طويلة من الزمان.. كان يعاتبنى عتابا شديدا عندما نلتقى.

فكنت أعتذر عن هـــذا الانقطاع قائلا فى شىء من الدعابة : أنت تعرف يا صديقى الدكتور أننى محام مشهور .. وأخشى على سمعتى من زيارتك بعيادتك هذه المكتظة ؛ أخشى أن يحسبنى من يرانى داخلا اليها أننى أحد مرضاك .. يعنى .. بالصراحة .. مناخوليا !!

وكان صديقى يبتسم فى هدوء اذ يسمع منى هذه الكلمات العابثة .. ولا يجيب !

وفى ذات مرة خرج عن هذه القاعدة ، وغمغم فى نبرة هى مزاج من الجد والعبث ، وهو يهز رأسه :

لا عليك ياصديقى .. ولا أحسبك مخطئا كل الخطأ فيما تقول فان العصر الذى نعيش فيه لم يترك أحدا منا الاوفيه شىء من المناخوليا . التى تحاول أن تبعد شبهتها عنـــك !

* * *

وفى ذات يوم .. كان ثمة أمر هام ينبغى أن أتحدث مع صديقى الدكتور بشأنه . فقصدت الى عيادته ، فألفيتها مكتظة كالعادة . وجاءنى بيومى التومرجى اذ رآنى بمقعد خشبى صغير جلست عليه بأحد أركان غرفة الانتظار . ولم أشـــأ أن أقطع الوقت بالاطلاع على المجلات القديمة التى تغطى سطح المنضدة فى وسط الحجرة . فقد كنت منهكا من البحث والاطلاع فى احدى قضاياى . فرأيت أن أستغل الوقت حتى يفرغ الدكتور لمقابلتى بعد انصراف المرضى .. فى أن أعالج نظم ماتبقى من قصيدة شعر كنت بدأت نظمها منذ أســبوع . ومعذرة لأنى لم أخبرك بأننى أهـــوى كتابة الشعر . وان كنت لم أفلح فى نشر قصيدة منه . ولا أعرف السبب فى ذلك حتى الآن !

الا أننى لم أكد أخلو الى نفسى حتى أحسست بعيون الجالســين تكتنفنى من كل جانب .. بعضها يرمقنى خلسة .. وبعضها يطيل النظر الى .

وكانت الغرفة يخيم عليها صمت ثقيل •• لا يقطعه الا الرنين الخافت لجرس الدكتور معلنا انتهاء زيارة •• وبدء زيارة أخرى لأحد مرضـاه •

وفجأة خطـر لى خاطر عجيب ، لعل مبعثه تلك العيون التى كانت تحدق فى ، كأنها تفتش فى أعماقى عن شىء ما أحاول اخفاءة عنها ! •• وذلك الصمت الطويل الثقيل الذى يرين على الغرفة ، ويضفى عليها جوا بوليسيا غامضا •• مفعما بالأسرار والألغاز !

خطر لى أن أختبر فراستى وخبرتى كمحام تمرس بعينات شتى من البشر ، وذلك بأن أحاول تحليل نفسـيات المنتظرين بالحجرة ، بملاحظة حركاتهم وسكناتهم وكافة مايصدر عنهم من تصرفات سواء كانت ارادية أو انعكاسية أو لاشعورية ، ثم أقرر فيما بينى وبين نفسى من هو المريض منهم ، ومن المرافق له ؟ •• وما الدوافع العائلية أو المعيشية ، التى ألقت بالمريض بين أنياب المرض ومخالبـه •

وجعلت أرمق المنتظرين خلسة كما يرمقوننى ، وأدير بينهم نظرى :

هذا الشاب المنزوى فى الركن المقابل لى •• المفتول العضـلات ، العريض المنكبين ، الذى يكاد الدم يتفجر من عروق وجهه ، وان كانت نظراته التائهة غير المسـتقرة •• تشى بشىء من التردد والخوف وعـدم الثقة ! •• لابد أنه العجز الجنسى اللعين ، والفشل المرير مع المرأة •• هما اللذان قاداه الى عيادة صديقى الطبيب !!

وهذه العذراء الجميلة فى عمر الورود ، الجالسة على طرف الأريكة الجلدية بجوار أمها فى هدوء واستسلام كأنما لايعنيها شىء فى الدنيا ! •• ليس غير الاخفاق فى الحب الأول ، ووقوف أسرتها بعناد بينها وبين من تحب هو الذى انتهى بها وبأسرتها معها الى هذه الجلسـة المستسـلمة ، تلتمس كلمة الأمل من فم صديقى الطبيب •

وهذه العانس ــ كما يبدو لى ــ فى نهاية العقد الخامس من عمرها ، لاتكاد تستقر فوق مقعدها ، ولاتنسى بين الدقيقة والأخرى أن تشــد رداءها القصير ، تحاول أن تخفى به ركبتيها ، وما يظهر من الجزء العلوى من فخذيها الممتلئتين البيضاوين ، كى تجذب اليهما الأنظار ! •• لابد أنها جناية وجهها الدميم الذى بخلت عليه الأقدار بأية مسحة من الجمال، فى حين أغدقت بسخاء وفن على ساقيها وما يرتفع فوقهما من بناء مدملج !

ثم •• أخيرا •• هذا الرجل الوقور الذى اتبذ مقعدا جلديا بالركن المجاور للباب ، والذى وخط الشيب شعر رأسه وشاربه • المعتدل القامة، الذى تنبعث من عينيه نظرات ثابتة كنظرات الصــقر ، لاتلبث ان تخبو وتفتر • والذى لايكاد يثبت فى جلســته •• محاولا بين الآونة والأخرى أن يتخذ لنفســه وضعا مميزا •• لكأنما يريد أن يقول للناظر اليه انه شخص فى غاية الأهمية ! ••• فى حين أنه لايعدو ــ فى رأيى ــ أن يكون موظفا مغلوبا على أمره نال الدرجة الرابعة بالرســوب الوظيفى ! •• لابد أنه الروتين الحكومى البغيض، وتسلسل الدرجات وتنازع الاختصاصات •• والدنيا التى هى حظوظ •• وضيعة الكفاءات فى بلد الشهادات ! •• لابد أن هذه الظروف مجتمعة ومتشابكة هى التى انتهت به الى هذه الجلسة الضجرة المتململة فى عيادة صديقى الطبيب •

* * *

ولم أشــعر بمضى الوقت وأنا أمارس هذه اللعبة فى متعة وشــغف وهنأت نفسى على ما أتمتع به من خبرة وفراسة وحسن استنتاج •• حتى أفقت على خلو غــرفة الانتظار الا منى ••• ومن الرجــل الوقــور ، الذى كنت قد أعطيته النصيب الأكبر من الاهتمام فى لعبتى الذكية !

وتنفست الصعداء •• فان صديقى الطبيب لن يلبث أن يأذن للرجل الوقور فى الدخول حتى اذا انتهى من فحصه •• خلا لنا الجو لنتحدث ــ

على راحتنا ـ فيما جئت من أجله . الا أننى فوجئت بالتومرجى بيومى يشير الينا نحن الاثنين ـ الرجل الوقور وأنا ! ـ فى أدب وهو يقول :

ـ اتفضلوا يابهوات .

وقفنا معا فى شبه تعجب وذهول كأنما مسنا تيار كهربائى ! ومكثنا هكذا حـوالى دقيقة كأننا غير مصـدقين . ثم دلفنا الى حجرة الدكتور سمير .. فاذا به واقف خلف مكتبه وقد افتر ثغره عن بسـمة واسـعة مجهدة .. وهو يقول مرحبا :

ـ لا مؤاخذة .. كان العمل الليلة كثيرا ومرهقا .. أخرتكما !!

ثم شد على يد الرجل الوقور فى اعزاز وهو يهتف :

ـ أوحشتنا والله يا أباخليل .. أين كنت طوال هذه المدة يارجل ؟

ثم أردف متعجبـا :

ـ عجبا !! .. ألا يعرف كل منكما الآخر !! اذن ما جدوى الجوار القديم وزمالة المدرسـة الثانوية ؟ !

وأشار الى الرجل الوقور وهو يقول لى :

ـ جاركم القديم السيد اللواء ابراهيم عبد الغفار .. ضابط شرطة عظيم .

ثم قدمنى بدورى الى الرجل الوقور . فشد كل منا على يد الآخر فى حرارة وشىء من الارتبـاك .

ثم مالبثنا أن انفجرنا نقهقـه معا فى آن واحد !

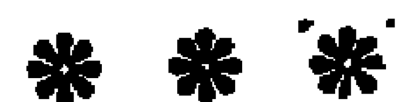
وفوجئت بالرجل الوقور يقول فى شبه اعتذار وهو مازال يضحك

ـ كنت أعتقد أنك •• !

قاطعته قبل أن يكمل جملته وأنا أشير اليه بأصبعى :

ـ بمناخوليا ؟! • وأنا أيضا •• نفس الحكاية !!

ثم انفجرنا نقهقه من جـديد ••



دفاع ... الفلاح الفصيح

قال العمدة وهو يضرب كفا بكف :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله . لمـاذا أطلقت النار على الجاموسـة ياعـويس ؟ !

وأجاب عويس .. الفلاح الساذج المسكين ، وهو يجيل بصره فى بطء ودهشة ، فى وجوه الجالسين حوله : العمدة . شيخ البلد . مأذون القرية . شيخ الخفراء أجاب فى غير مبالاة :

ــ جاموستى ياحضرة العمدة ، وأنا حر أصنع بها ما أشاء !

قـال العمدة فى غضب :

ألأنك تملكهـا .. تقـتلها ؟ !

أنا حـر .. ولايشاركنى فيها أحـد ..

صرخ صوت حـاد مقاطعا فى فزع .. صوت مأذون القريـة :

ــ لايشاركك فيها أحد ياعويس ياابن بهانـة ؟ !

كيف ذلك ؟ البلدة كلها تشاركك فى الجاموسـة .

أجاب عويس ابن بهانـة فى سخرية :

ــ وهل هذا كلام معقول أيها السادة ؟! اذا كان ذلك كذلك .. فأنا أشاركك ياحضرة القاضى فى جميع المـاشية التى تزدحم بها حظيرتك المباركة .. وهى ــ ولاحسد ــ تسد عين الشمس . أليس كذلك ياحضرة العمـدة ؟

قال شيخ الخفراء بصوت أجش غليظ منقذا الموقف :

ــ الشيخ عبد المتعال لا يقصد ذلك .. ياولد !

أذن ماذا يقصد ياشيخ الخفراء ؟ أفهمنى فتح الله عليك وزادك علما، وحكمــة .

ــ الشيخ عبد المتعال يريد أن يقول ان للبلدة حقا معلوما فى لحم الجاموســة .

قال عويس مذعــورا :

ــ لحــم .. جاموستى ؟ !

ــ أى أنه كان ينبغى عليك أن تقوم بذبحها .

وحينئذ يحصل كل فرد من أهل البلدة على نصيبه من لحمها ! هذه هى الحكايــة ياعويس ياابن بهانــة .. أفهمت ؟

عــاد عويس لاصراره :

ــ الجاموسة جاموستى وأنا حر .. أقتلها .. أذبحها .. أصــنع بها ما أشاء ! قلت اننى حــر ..

نهــره العمدة مقاطعــا :

ــ اللهم طولك ياروح ! لم تجب بعد على سؤالى ياعويس !

ــ أجبت ياحضرة العمدة .. وهل يستطيع فلاح مثلى ألا يجيب على سؤالك ! ماذا تريدون منى بعد ذلك ! ؟

قال العمدة وهو يضغط على كل كلمة من كلامه :

ــ نريد أن نعرف لمــاذا قتلت الجاموســة ؟

سأل عويس فى تعجب :

ــ وهل هذا يخصكم فى شىء ياحضرة العمدة ؟ ! ترى هل فى الأمر جناية ؟ ! ألا تكون الجاموسة « بنى آدم » دون أن أدرى ؟ !

صرخ شــيخ البلد فجــأة :

ــ أكثر من بنى آدم ياوله ! هل يستطيع أحد منا أن يعثر الآن على قطعة من اللحم ؟ !

أجاب عويس مدهوشــا :

ــ كيف ياشيخ البلد .. والبلد كلها بهائم والحمد للــه !؟

قال العمدة أخيرا فى نبرة تنطوى على التهديد :

ــ اللهم طولك ياروح ! قل ياعويس .. لمــاذا قتلت الجاموسة ؟!

سكت عويس برهة ، وقد أحس وطأة التهديد .. بينما جعلت عيون الجالسين تحدق فيه من كل جانب . ثم قال كأنما يطلق قذيفة :

ــ ضقت بها ذرعا ياحضرة العمدة ! فأطلقت عليها النار وأرديتهــا قتيــلا !

سأل العمدة وقد بدا على صوته شىء من الارتياح :

أخيرا حصل بحنكته ودهائــه على اعتراف صريح من المتهم ! :

ــــ ضقت بها ذرعــا ياعويس ؟ ! .. كيف ؟

أجــاب عويس يائسا :

ــ أقول لك ياحضرة العمدة ! لقد ابتعت لها أول أمس نصف حمل من التبن .. صاح شيخ الخفراء كأنه يستغيث :

ــ نصف حمل من التبن مرة واحدة ياعويس ؟ ! من أين حصلت على ثمنه وقد جاوز ثمن الدقيق والمكرونة ياوله ؟ !

أجاب عويس فى هدوء وحكمة :

ــ بعت « الحرام» ياشيخ الخفراء ! كان ينبغى على أن أوفر للجاموسة ماتقتات به بعد أن أصابها الهزال وكاد ضرعها يجف . حقا لقد ارتفع ثمن التبن فجأة ، بحيث تجاوز ثمن الدقيق الذى يقتات به الآدميون أمثالنا .. ولكن كان يجب على أن أتصرف .. أن أتخذ موقفا بالنسبة للجاموسة . اذ ليس من المعقول أن أدعها تموت فى دارى جوعا !

وسكت عويس هنيهة ، وجعل ينظر الى الجالسين يستكشف صدى كلامه فى نفوسهم .. فأذا عيونهم جميعا الى الارض .

وقال العمدة محاولا اخفاء قلقه :

ــ ثم ماذا ياعويس ؟

ــ ثم انى وقد ابتعت نصف الحمل من التبن ، أخذت بعضا منه ووضعته أمام الجاموسة الجائعة حتى تأكل وتشبع . ثم احتفظت بالباقى فى جوال من الخيش بأحد أركان الحظيرة لتتزود منه الجاموسة فى تابل أيامها . وأويت الى النوم هادىء البال مستريح الضمير . فلما جاء الصباح .. فوجئت بالجاموسة وقد قطعت رباطها ، وأتت على التبن كله لم تبق منه على شيء ! هنا غلا الدم فى رأسى ، وفقدت سيطرتى على نفسى، وأحضرت طبنجتى وأطلقت لفورى على الجاموسة ــ وهى ماتزال تتلمظ ببقايا التبن : عيارين ناريين .. فخرت صريعا ! فهل ترونني أخطأت أيها السادة .. وأنتم تعلمون وقر الحياة وشدتها ؟ ! لقد فقدت الجاموسة فى لحظة ضعف وجوع « انسانيتها » وأتت على التبن كله دفعة واحدة .. فهل أخطأت اذ عاقبتها على جشعها وأوردتها حتفها ووضعت حلا لمشكلتها معى ومشكلتى معها ؟ !

قال مأذون القرية فى شىء من الضعف والتردد ، وقد خشى أن يؤثر دفاع الفلاح فى نفوس الحاضرين :

ـ قطعا أخطأت ياعويس ! تريد أن تعاقبها وتتخلص منها •• كنت ذبحتها • وعلى رأى الشاعر •• تعددت الأسباب والموت واحد • ألاتعرف يارجل أن هناك أزمة لحم مستحكمة فى البلد ؟ !

قال عويس كالملدوغ :

ـ أزمة لحم ياحضرة القاضى ؟ ! وما شأنى أنا بهذه الأزمة ياشيخ عبد المتعال : ؟! اننى لاأذوق اللحم الا فى المواسم وحياة ذقنك ياسيدنا الشيخ •

ـ ما شأنك ياعويس ؟ ! تقتل جاموسة تزن مائتين أو ثلاثمائة كيلو من اللحم البلدى المعتبر ، ونوردها حتفها هدرا •• وتقول ما شأنك يابليد العقل ؟ !

ـ هل تعتقد ياحضرة القاضى أن جاموستى هى التى كانت ستحل أزمة اللحم فى البلد ! ان كان ذلك كذلك فأنا أستحق الشنق !

ـ يعنى ياعويس : شىء أفضل من لاشىء !

قال عويس وقد أحس أنه أسقط فى يده :

ـ لقد قصصت عليكم ما حدث ، وهل تعتقدون ياسادة أننى كنت أريد قتلها أو أبغى فراقها ؟ ! ان منزلتها فى نفسى منزلة أحد أولادى • ولكن ماذا أصنع •• وكيف أضمن لها قوت يومها وثمن التبن يزداد ارتفاعا يوما بعد يوم •أما كان لكم أيها السادة أن تحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبونى ؟ ! ألم يكن أولى بكم ــ طالما أنكم تحبون اللحم ــ وفى يدكم أمر الحل والربط ، أن تفكروا فى طريقة تحدون بها من ارتفاع ثمن

التبن المجنون ،بدلا من تجمعكم هكذا بعد فوات الأوان لمحاكمتي وتعذيبي فوق العذاب الذي أصابني منذ فارقتني جاموستي !

قال العمـدة متعجبـا :

ـ ما شاء الله ! لم نكن نعرف أنك فصـيح هكذا ياعويس ياابن بهانة ؟ !

ـ فصيح ؟ ! أستغفر الله ياحضرة العمدة لي ولك ! انما الحق هو الذي يتكلم • والحق ليس في حاجة الى فصـاحة أو تلاعب بالكلمـات والألفاظ • أقول لكم أيها السادة • كيف سمحت لكم نفوسـكم أن تقفوا مكتوفي الأيدي وثمن التبن •• غذاء ماشيتنا وبهائمنا •• وحصاد أرضنا وزرعنا •• تصيبه لوثة مفاجئة •• نغدو ازاءها عاجزين مبهوتين !؟

صـاح العمدة فجأة :

ـ أغلق فمك ياعويس ! اياك والكلام في السياسة ياوله !

ـ سياسة ياحضرة العمدة • وهل أصبح الكلام في أكل البهائم كلاما في السياسة ؟! اذن فأني لمـن أهل العيب اذا فتحت فمي بعد الآن !

وساد القاعة في دوار العمدة صـمت كئيب ، قطعه شـيخ الخفراء متسائلا بصوته الأجش الغليظ :

ـ وكيف يكون التصرف ياحضرة العمدة •• ازاء هذا الحادث ؟

قال العمـدة متفكرا :

ـ حقا ياشيخ الخفراء •• كيف يكون التصرف ؟ !

أجاب شيخ البلد فـورا :

ـ جنابة ياحضرة العمدة ! جناية قتل ! الأمر واضـح وضـوح الشمس •• ولابد أن تبلغ سعادة البيه المـأمور حالا •

أما مأذون القرية فأبى الا أن يدلى بدلوه :

ـ وتخريب ياحضرة العمدة • نعم تخريب ! ماذا تقول عنا القرى المجاورة اذا سكتنا عن هذا الفعل الأحمق لعويس ابن بهانة ؟! وهل هناك سيرة فى الصحف والمجلات تلوكها ليلا ونهارا وتقول وتعيد فيها •• سوى سيرة اللحم وأزمة اللحم ؟! تخريب •• تخريب مع سبق الاصرار والترصد ! ولابد من عقاب الجانى •

قال العمدة فى نبرة التأمل والتفكير والحسم :

ـ الحق معك ياشـيخ عبد المتعال •• والا لعمت الفوضى وخرب البلد • ونحن هنا واقفون تتفرج كأنما الأمر لايعنينا !

ثم أصدر العمدة أوامره :

ـ اذهب ياشيخ الخفراء واضبط الطبنجة المستعملة فى الحادث •• وتحفظ على جثة الجاموسة القتيل • وأنت ياعامل التليفون ، بلغ اشارة الى المركز •

وأردف مسـتنكرا :

ـ جنايتان مرة واحدة ياعويس ! قتل وتخريب •• لاحول ولاقوة الا باللـه !

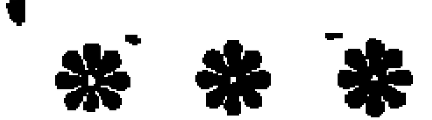
أضاف الشيخ عبد المتعال مأذون القرية .. وهو يتلمظ ويبلع ريقه:

ــ أليس فى قلبك رحمة ياوله ؟ ! لقد حرمت البلدة بفعلتك الشنعاء من ليلة عيد ! ألا تعرف أن دخــول قطعة من اللحم الى أية دار يســعد الصغار قبل الكبار ؟ !

تكلم الفلاح المغلوب على أمره أخيرا :

ــ أمرى الى الله أيها السادة ! ويســعدنى حقا أن أراكم أخيرا تحاولون أن تؤدوا واجبكم نحو بلدكم .. اذا كنتم فى قرارة نفوسكم تشعرون حقا بأنكم تفعلون .. ولو كان هذا على حسابى أنا فلاح أرضكم المســكين !

وانفض مجلس التحقيق ، وانفرط عقده .. وانصرف الحاضرون واحدا تلو الآخر .. وقد انتفخت أوداج كل منهم زهوا .. ..



فهـرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

محمد حمدى السعيد

رقم الايداع ١٩٨٠/٥٤٩٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٤٠٣٠ س ١٩٨ — ١٠٠٠٠

جمهورية مصر العربية

مطبوعات
المجلس الأعلى للثقافة

– ٢٣٧ –

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م